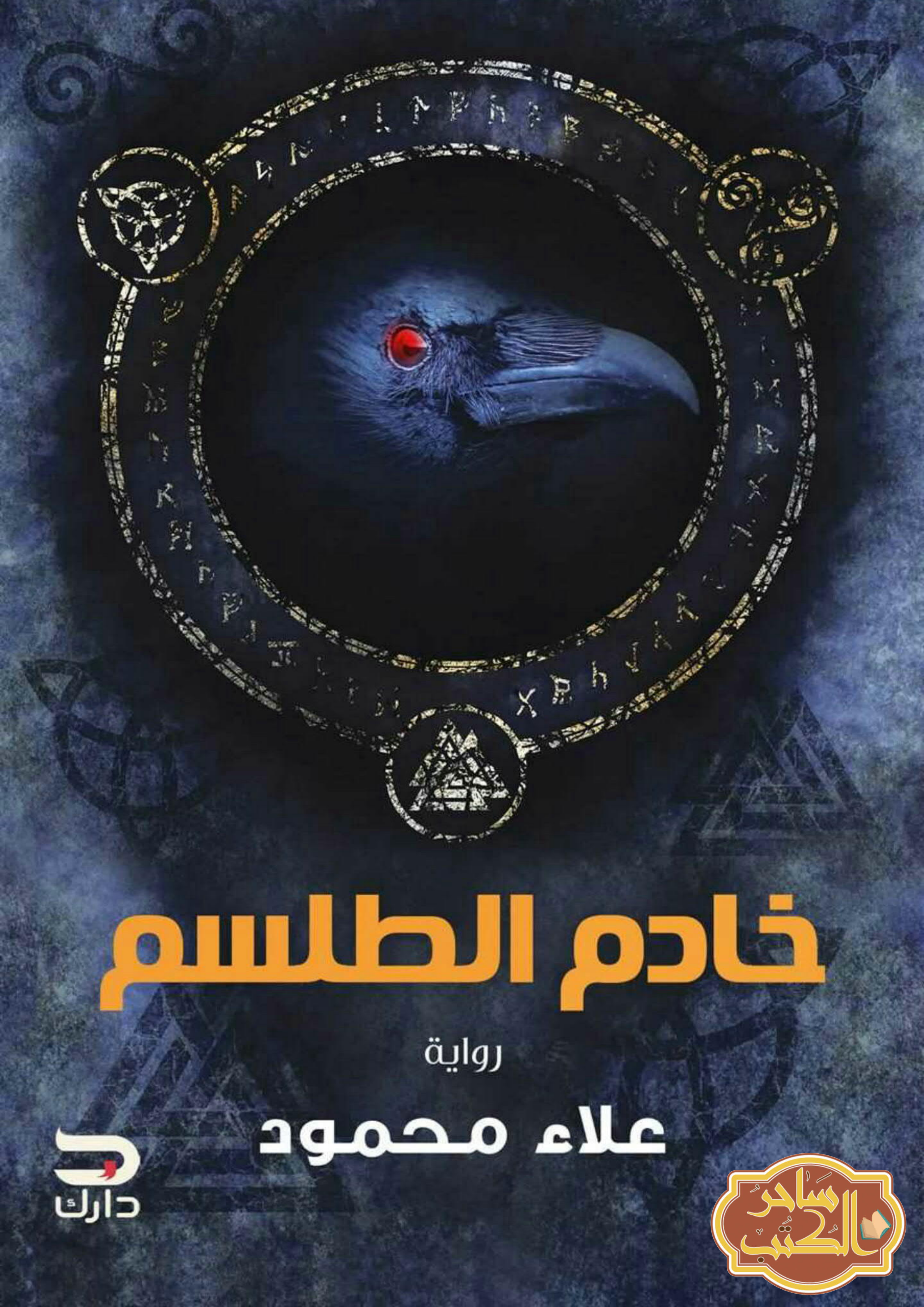


خادم الطلسم
رواية
علاء محمود
دارك
ساحر الكتب

خادم الطلسم



info@darak-eg.com



٠٢ ٠١٠-٢٤٨٣٢٦٦٩ ٢٧٢٥١٩١٥



١٥ ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.

خادم الطلسم

علاء محمود

تصميم الغلاف: أسامة علام

رقم الإيداع: ٢٠١٨/٢٢٣٤٠


ساحر الكتب


ساحر الكتب

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٣٤-١٤-٥

الطبعة الأولى: ٢٠١٩

تدقيق لغوي- تنسيق داخلي:



www.sekoon.com

علاء محمود

خادم الطلسم

رواية



إهداء

إلى روح العرَّاب

د. أحمد خالد توفيق

أسوار عالية تخدش الغيوم.

أنا سجين؟ ولكن لم؟

ملمسها عجيب.

أمزقها وأعبر إلى العالم.

لقد تذكَّرت.

أنا الجنون.

والآن تحرَّرت.

(1)

لم أقابل مواجهة في حياتي مثل هذه المواجهة.

إنه صراع بين أعتى قوى الشر، وبين رجل يظن نفسه قاهرًا للرعب.. كنت شاهداً، ولم أكن طرفًا في الصراع، لكن هذا لم يمنع أبداً أن أرى الرعب مجسداً..

وأن أرى الشيطان ذاته!!

* * *

الشتاء هذا العام كان عاتيًا، والبرودة شديدة تتخلل العظام وتضرب اللحم بخناجر من جليد، حتى إن حجرتي صارت كمستودع للثلج.. اندسست تحت عدة أغطية، وجعلت زوجتي تعد لي قدحًا من القهوة الساخنة، يتصاعد البخار من فوهتها؛ ليمنحني دفئا لذيذاً مفقوداً.

عندما تعالى رنين هاتفي المحمول في إلحاح شديد، تجاهلته تمامًا، وكلي إصرار على عدم الرد مهما كان الثمن.. لا أريد أيّاً من كان المتصل أن ينتزعني من فراشي الدافئ، في تلك الليلة الشتوية الباردة.

الهاتف يدق في إلحاح شديد، وزوجتي «راندا» تنظر لي متعجبة وهي تقول:

– منذ متى كنت كسولا هكذا يا صلاح؟ ربما كانت هناك جريمة تحتاجك بشدة.

قلت بغيظ من بين أسناني:

– تعلمين أنني أكره البرد بشدة، حتى إنني لا أستحم أبداً في تلك الليالي الشديدة البرودة.. ثم إن مهنتي كضابط مباحث لا تعني أبداً ألا أنال راحتي.. ثم من قال إن هذا الاتصال من العمل أصلًا؟ أنسيتِ أنني في إجازة رسمية منذ بداية تلك الموجة الثلجية؟

قهقهت زوجتي:

– لا أعلم لماذا تشعرني أننا نسكن في القطب الشمالي.. هيَّا قم وكف عن هذا الكسل!

قلت لها لائما:

– أنسيتِ آلام ظهري التي تشتد مع البرد؟

فقالت بهدوءٍ:

– لم أقل لك اقفز في النيل.. كل ما أطلبه فقط أن تعلم من المتصل، ربما كان أحد من أشقائك مريضًا ويحتاج إلى إنقاذ عاجل.

صحت في عصبية:

– ربما العمل.. ربما أشقاؤك.. اللعنة عليهم جميعًا.. أنا رجل مريض أحتاج إلى الراحة!

ابتسمت في مرح مستفز:

– في هذه النقطة بالذات أنا معك.

سألتها متوجسا:

– ماذا تقصدين؟

أدارت أصابعها تجاه أذنها، وهي تقول:

– أنت رجل مريض.. مريض بوسواس البرودة.

كنت عصبيّا بحكم مهنتي الخانقة، واحتكاكي مع المجرمين المستفزين؛ لكنني حاولت تمالك أعصابي بشدة، خاصة وأنني على يقين أنها تمزح فقط كعادتها.. تناولت الهاتف الذي توقف عن الرنين، ونظرت إلى رقم المتصل فوجدته غير مسجل لديَّ؛ فقلت بلهجة المنتصر:

– أرأيتِ.. لم يكن العمل أو أحد أعرفه.

ثم رفعت الأغطية إلى وجهي قائلا:

– هيّا اتركيني لأرتاح قليلاً، واذهبي لتحضري لنا العشاء.

رمقتني بنظرة لائمة دون تعليق، وغادرت الحجرة برشاقة تحسد عليها.

عدت أتأمل رقم المتصل مجدداً وقد تملكني شعور شديد أنني أعرفه من قبل.. ربما كان أحد أصدقائي الذين فقدت أرقامهم عند تغيير هاتفي بآخر حديث، وماذا في هذا؟ فليكن المتصل هو الشيطان ذاته.. لن أغادر فراشي مهما كان الأمر.

قفزت من شدة الفزع عندما عاد هاتفي يرن فجأة، وكاد يسقط أرضًا، لكنني تشبثت به، وأنا أحاول تهدئة دقات قلبي المكوكية.

ضغطت زر الإجابة، وأنا أقول بصرامة:

– ألو.. من؟

أتاني ذلك الصوت المرتجف، وهو يقول:

– النقيب صلاح رمزي؟

مَن هذا المتظرف؟ أجبته بخشونة:

– تقصد العقيد صلاح.

أتاني صوته مهزوزا، لا أعلم إذا كان يضحك أم يرتجف هلعًا:

– عقيد؟.. مبارك يا صديقي.. ترقية استثنائية هي.. أنت ما زلت صغيرا على تلك الرتبة.

شعرت بالدم يتصاعد إلى رأسي، فصرخت فيه قائلًا:

– من معي؟

أجاب ضاحكا:

– أنسيت صوتي يا صلاح؟

هنا لم أتمالك أعصابي فقمت بإغلاق الهاتف بعنف وأنا أسب وألعن.. لا أحب من يستظرف بينما أعصابي على الحافة، ولا أطيق المزاح على هيئة «ألا تعرف من؟» أو «ألا تعرف تلك المعلومة بجد؟» أو «ألم تسمع بالفعل عما حدث؟» أكره كل من تأتي إجابتهم على هيئة أسئلة عقيمة مستفزة.



عاد الهاتف يرن مرة أخرى بطريقة أكثر إلحاحًا، فرمقته دون أن أجيب مفكرًا في صوت محدثي.. هل سمعت هذا الصوت سابقا؟

الحق يقال كان الصوت مألوفًا، لكنني لا أستطيع تذكر صاحبه.. سأجيب هذه المرة فقط، ولو عاد إلى ردوده المستفزة سيكون حسابه معي عسيرا:

- ألو..

جاءني صوته هذه المرة حزينا:

- أنا آسف يا صلاح.. كان لا بد أن أذكرك بنفسي قبل أن أبدأ الحديث بطريقة ودية.. لكنني وبحق كنت أشتاق إليك بشدة.

صمت قليلا ثم قال:

- أنا حسام.

سألته في حيرة:

- حسام من؟

أجاب في سرعة:

- حسام الراعي.. زميل الدراسة القديم.

حسام الراعي.. نعم أعرفه.. قلت بلهفة:

– حسام كيف حالك يا صديقي؟ متى عدت من الخارج؟

أجاب بلهجة منكسرة:

– منذ بضعة أيام فقط.. هل أستطيع أن أراك؟

قلت متحمسا:

– نعم بالتأكيد.. وسنجمع الشلة القديمة كالأيام الخوالي.

قاطعني متنحنحًا:

– ليس الآن أرجوك.. دعهم لوقت آخر.. أما الآن فأنا أحتاجك بشدة.

قلت له في إخلاص:

– تحت أمرك يا صديقي.. متى؟

قال في حرج:

– الآن إذا أمكن.



نظرت إلى الساعة.. كانت تقترب من العاشرة مساء.. شعرت بالحرج وأنا أقول:

– صعب يا حسام في هذا الوقت.. لن أستطيع ترك زوجتي بمفردها.. ثم إن الجو بالخارج على وشك أن يمطر.

شعرت بأنفاسه اللاهثة تلفح أذني، وهو يقول برعب:

– هذه هي الأجواء المناسبة لقدومه.. لا أستطيع البقاء بمفردي حتى يأتي.. أحتاجك بشدة يا صديقي، وأحتاج إلى سلاحك أيضا.

سألته بقلق:

– من تقصد؟ هل هو أحد نعرفه؟

جاءت إجابته كقنبلة يدوية الصنع انفجرت في قلب المكان.. قال وأنا أكاد أراه يرتجف:

– الشيطان.

* * *

(٢)

شعرت بالارتباك من كلمته، ولم أعرف ماذا يقصد بالضبط؟ هل هو سفاح مثلًا يبغي قتله، أم شخص يحمل شرًّا مستطيرًا لدرجة تلقيبه بالشيطان؟

أم هو يقصد الشيطان فعليًّا؟!

سألته بحذرٍ:

– ماذا تعني؟ أنا لا أفهم.

أجاب بغموض:

– ستعرف كل شيء عند مجيئك.. لا تنسَ سلاحك كما قلت.

ثم همهم بعبارة غريبة لم أفهم معناها.. سألته عما يقصد فأجاب:

– أقول لك: هات ورقة وقلمًا كي تكتب العنوان.

أملاني عنوان مزرعة قديمة في طريق مصر الإسكندرية الصحراوي.

هل أذهب في طريق الإسكندرية الآن، في قلب تلك العاصفة الوشيكة؟! ما الذي جعلني أجيب على الهاتف اللعين! ولكن ليس هناك بد إذن من مغادرة فراشي؛ فصديقي في محنة كما يقول، ويطلب مساندتي بشدة وإلحاح.. أي إنني على ما يبدو آخر أمل له في الكون.. تأملت سقف الحجرة مفكرًا لحظات عما يعنيه بالضبط بالشيطان؟!

انفتحت النافذة فجأة بدون مبرر واضح، وتدفقت من خلالها موجة باردة من الرياح، جعلت جسدي يرتجف بشدة كمن أصابته حمى إنفلونزا.. شيء جميل ويدعو للتفاؤل.. الغريب أنني على الرغم من تلك الفوبيا العجيبة التي تصيبني بسبب البرودة، إلا أن شيئًا ما دفعني دفعًا لإزاحة الأغطية جانبًا، وانتقاء ملابس ثقيلة تصلح لمواجهة تلك العاصفة التي تزأر في الخارج.

برشاقة دلفت زوجتي إلى الحجرة، وعلى وجهها ابتسامة خبيثة، وهي تخبرني أن طعام العشاء جاهز على المائدة.. لكن ابتسامتها تجمدت على شفتيها، وتملكتها دهشة شديدة حائرة، وهي تراني أرتدي ملابسي في عجالة.

* * *

«حسام الراعي»

نحيف الجسد.. قصير القامة.. كالقلم.

رفيق الكفاح، وزميل دراستي منذ المرحلة الابتدائية وحتى نهاية الثانوية.. فرقتنا بعد ذلك الجامعات، أنا ارتحلت إلى كلية الشرطة، وهو ذهب لدراسة التاريخ على الرغم من مجموعه العالي.

أذكر جيدًا أنه كان طفلًا مختلفًا عن أقرانه، صامتًا دائمًا وكتومًا كالخزانة، وإن كان هذا لم يمنعه من التفوق في الدراسة بشدة.. أكثر ما كان يثير حيرتنا وخوفنا في تلك الفترة منه، هو تلك الكتب التي تتناول دراسات غير جادة عن عالم الجن والشياطين، لم أفهم وقتها ولعه الشديد بها، كل ما علمته أنه قابل جارًا لهم ممسوسًا جعله يغير فكرته عن الحياة بأكملها، لكنه لم يخبرنا بما حدث تفصيلًا.

وطوال سنوات الدراسة كان نهمه لهذا العالم في تزايد مستمر، كأنه يحاول أن يزيح عنه ستار الظلام، وعلى ما يبدو أنه استمر في هذا حتى هذه اللحظة، خاصة أنني سمعت أنه قد ارتحل إلى اليمن والمغرب، والعديد من الدول المشهورة بممارسة السحر.

يا إلهي!



هذا يعني أنه يقصد شيطانا حقيقيّا لا مجازيّا.

اللعنة.. لا ينقصني إلا هذا!

* * *

سألتني زوجتي وأنا أرتدي حذائي:

– إلى أين أنت ذاهب؟

أجبتها في خطورة:

– ذاهب لمحاربة الشيطان.

صرخت في هلع:

– ماذا؟

تأكدت من حشو مسدسي جيدا قبل أن أضعه في نطاقه، وقلت:

– مشورتك السوداء التي جعلتني أجيب على الهاتف، والآن هناك صديق قديم يحتاجني لأن شيطانًا يتهدده.

حدقت فيّ بحيرة وهي تسألني:



– هل تمزح؟

أجبتها وأنا أرتدي سترتي:

– هذا ما قاله لي.. أما إذا كان ما يقوله حقيقة أم أن لوثة عقلية قد أصابته، فعلمها عند اللّه.

قالت بعدم اكتراث:

– حسنًا.. لا تنسَ عند عودتك أن تأتي بمسحوق الغسيل، فما لديَّ قد نفذ، وأرغب في غسل بعض الملابس.

مسحوق غسيل بعد أن أذهب لملاقاة شيطان؟!

هؤلاء النسوة قادرون على إصابة المرء بالجنون.

قلت لها بجدية:

– أعدكِ لو ظللت على قيد الحياة سأحضر لكِ عبوة عائلية.

* * *

البرد والظلام والغيوم الداكنة التي تجوب السماء، وسيارتي تنهب الطريق نهبًا في طريقي إليه، يحركني الفضول لمعرفة ما الذي أصابه بالضبط،



ومما يعاني، هل هو الجنون، أم هو شيء أخطر وأعظم؟

وددت لو كان القمر يرقد في كبد السماء؛ ليمنحني بعض الصحبة في هذا الطريق الموحش الذي أقطعه.. لكن الليلة محاق، والسماء مظلمة بشدة، وكأنها قلب كهف عميق.. ليلة تليق بحضور الشياطين.

على الرغم من جهلي بذلك العالم الغامض، لكنني قرأت ذات مرة أن الليالي المحاق خاصة بالشياطين النتنة الماجنة، يكتبون لها الطلاسم، والبخور ذات الروائح الكريهة لطردها، أما في الليالي المقمرة فهي خاصة بالجن المسالم.

أم هو خادم من الجن له يوم محدد؟

لا أذكر تحديداً، ولا أريد أن أعرف، التفكير في مثل تلك الأشياء يجعلني أرتجف، ويبعث داخلي رعبًا بلا حدود؛ فالشياطين والجن ليسوا مجرمين أستطيع ببعض التحريات معرفة أماكن اختبائهم للقبض عليهم، بل لهم عالمهم الغامض المخيف، ولهم شيوخ يفهمون حياتهم، وقادرون على هزيمتهم.

هذا إذا كان ما أسمعه عن الدجل وعلاج المس حقيقة، وليس مجرد طرق قديمة للنصب والثراء..

لم أقابل شخصًا ممسوسًا في حياتي قط، كما لم أرَ جنيًّا، أو أي شيء خارق للعادة، كل ما قابلته مجرد وقائع حياتية، لا رعب فيها ولا حضور شيطاني.

راقبت الطريق المظلم على ضوء مصباحَيّ السيارة، الطريق موحش بحق لا تقطعه إلا سيارة واحدة كل فترة، لو أصابني حادث لا قدر اللّه لن يشعر بي أحد قبل مرور وقت طويل.

تساءلت: لماذا هذا التفكير العجيب الذي يدور بعقلي.. ربما كان الأمر أبسط كثيرًا مما أعتقد، وما كان صديقي يقصده شيء آخر لا يمت لهذا العالم المخيف بصلة.. أم أن التفكير في مثل هذه الأشياء يمنح الإنسان لذة ما، كالتي كنا نشعر بها قديما، ونحن نسمع قصص الجان، أو نشاهد أفلام الأشباح في طفولتنا؟

لا أنكر أن الأمر ممتع، خاصة وأنا أنطلق في ذلك الطريق المظلم البارد، وتلك السحب المتكتلة التي تلف السماء وتوحي بقرب قدوم العاصفة، بينما أنا أجلس محتميًا بأبواب سيارتي من أي خطر.

تعالى رنين الهاتف المحمول ليقطع السكون.. نظرت إلى شاشته وأنا أحاول مراقبة الطريق، الرقم يحمل اسم زوجتي.. أرجو ألا ترغب في بعض الصابون أيضا.

قمت بالرد بفتور قائلا:

- نعم.

أتاني صوتها القلق، وهي تجيب:

- هل أنت بخير؟

زوجتي تنضم بشدة إلى من يثيرون غيظي.. أجبتها ساخرا:

- لا.. لقد لقيت نحبي في حادثة، ويكلمك شبحي الآن.

قالت وهي تكاد تنفجر ضحكا:

- لقد أردت فقط الاطمئنان عليك يا حبيبي.

- حبيبي! هل أنتِ متأكدة من الرقم؟

- كفى مزاحا.. وطمئني عليك.. هل وصلت لصديقك هذا؟

- ليس بعد.. الطريق طويل بغباء.. وموحش.. حتى إنني متعجب وأتساءل: ألم يعد أحد يذهب إلى الإسكندرية؟



– إسكندرية في الشتاء!!

– وماذا في هذا؟ هل تعتقدين أن الذاهبين للاصطياف فقط؟

– لا أعلم.. لكن تلك الأجواء العاصفة ستجعل تواجد شخص ما أمرا نادرًا.

– نعم.. أنا الأحمق الوحيد الذي يفعلها.

– لماذا لا تدعك من كل هذا، وتعود إلى المنزل؟

فكرت كثيرًا في هذا وتعجبت، ما الذي جعلني أهرع إليه هكذا فجأة؟

لكنني لم أملك إلا إجابة واحدة.

الفضول.

فأنا لم أرَ شيطانًا من قبل.

* * *



(٣)

البرق يتوهج بشدة على سطح الغيوم التي غطت السماء، تبعه بعد برهة هزيم مدوٍّ للرعد كانفجار القنابل.. تذكرت معلومة قديمة عن حساب الوقت بين البرق والرعد، إذا كان في تزايد فالعاصفة على وشك الرحيل، أما إذا كان الوقت يتناقص فالأمطار في طريقها للهطول.. من الأحمق الذي يشغل نفسه بتلك الحسابات المعقدة، فلينهمر المطر كما يحلو له، السيارة تمثل لي حصنا ممتازًا آمنًا.

هنا تقافزت السيارة في حركة عجيبة، أشبه بالجمل الذي أفزعه شيء ما، وأصدر المحرك ضجيجًا مزعجًا، كأنه موشك على فعل شيء من اثنين.. التوقف أو الاحتراق.

اللعنة! ليس الآن يا سيارتي العزيزة، هذا ليس وقت التوقف عن العمل.

تحول الضجيج إلى ما يشبه الحشرجة، توقف بعده محرك السيارة اللعين عن العمل، وإن كانت السيارة مستمرة في الحركة إلى الأمام بفعل القصور الذاتي.. انتهزت الفرصة في حنكة، وحركت المقود في الاتجاه الأيمن بعيدًا عن مجرى الطريق، ولم تمر إلا ثوانٍ معدودة حتى كانت أشبه بجثة هامدة.

خرجت حاملًا مصباحي اليدوي لفحص المحرك على ضوئه، لكنني لم أجد ما أفعله.. صحيح أن المحرك ساخن لدرجة الاحتراق، لكنني لا أعلم تلك الطريقة السحرية، التي يتبعها سائقو السيارات كي يعيدوها إلى العمل مجدداً.

ليس أمامي الآن إلا الاتصال بأحد مراكز الصيانة؛ لينقذني من تلك الورطة اللعينة.

ارتجف جسدي بشدة من أثر لسعة البرد؛ فعدت مجدداً إلى رحم السيارة كي ألوذ بها من هذا البرد القارص، وأدس جسدي داخل المعطف الشتوي الثقيل، الذي لم أكن أرغب في ارتدائه الآن؛ فالدفء له قواعد كما تعلمون، كي لا يصاب المرء بنوبة إنفلونزا مفاجئة.

تأملت بحسرة علامة X الحمراء التي تحتل مكان إشارة الشبكة، وكدت أحطم هاتفي غيظًا، وأنا ألعن حسام في سري.

تلفتُّ حولي بفضول ممزوج بالقليل من التوجس.. ظلام يمتد على الجانب الأيمن، وظلام أشد على الجانب الأيسر، حتى إن أعمدة الإنارة كانت مطفأة بدورها، الدولة لم تجد مبرراً كافياً كي تنير طريقاً مهجوراً، أو حتى تهتم بتقوية شبكات المحمول.



دوى الرعد في قوة كأنه ينذرني بقرب هطول المطر.. ومن خلفي تصاعدت زمجرة وحشية، لا تمت بصوت الطبيعة الغاضبة بأي صلة.. ترى ماذا يحدث خلفي؟

نقلت بصري بقلق من نهر الطريق إلى المرآة الأمامية، ليصدمني زوج من الأعين المخيفة الشيطانية.

هل ما أراه الآن هو الشيطان حقّا، أم أن هذا من نسج خيالي؟

* * *

ارتجف جسدي كذيل البرص المقطوع، وأنا أراقب هذا الوجه المريع الذي لا أستطيع وصفه.

لم يكن يشبه أي شيء رأيته سابقًا، ولا حتى في أكثر أفلام الرعب شناعة.. حاولت مغادرة السيارة في سرعة والعدو بعيداً عن هذا الشيء الجحيمي، لكنني شعرت بجسدي مثبتًا مكانه بقوة خارقة، وكأن قد تم لصقي بالمقعد بواسطة غراء قوي.

أنفاسه الساخنة تلفح عنقي، مع عبارة واحدة تفوه بها بصوت لا يمت للبشر بصلة.. «لن تفلح!» ثم تلاشى فجأة دون أن يخلف وراءه أي أثر.



انتفض جسدي بعنف حتى كدت أصطدم بالمقود، وعندما أدركت أنني صرت حرًّا غادرت السيارة بهستيريا، وأخذت أركض مبتعدا عنها في سرعة محمومة.

واصلت العدو حتى صارت السيارة كنقطة بيضاء من خلفي، وحتى تقطعت أنفاسي.

جسدي ما زال يرتجف، والرعب يعصف بأعماقي كأمواج عاتية. وعقلي يموج بأسئلة لا حصر لها.

أولها.. هل الذي رأيته حقيقي أم لا؟

هل هذا هو الشيطان ذاته أم أنني أهذي؟

على ما يبدو أيضًا أن توقف السيارة لم يكن صدفة.. لقد حاول هذا الشيء أن يمنعني من الذهاب.. لكن لماذا؟

ما الذي يحدث بالضبط؟

* * *

واصلت طريقي سيرًا، وكلي تصميم على الذهاب إلى صديقي، ومساعدته فيما يحتاجه، متحديًا بهذه الطريقة الشيطان الذي جعلني أشعر بالخزي والعار بعد فراري بهذه الطريقة المخجلة.

صحيح أنني لم أملك الوسيلة المناسبة للتصدي له، لكن هرولتي كالجبان مع ما أحمله من رتبة عسكرية، حصلت عليها بعد مشقة وعمل دؤوب جاد، جعلني أستشعر كمّاً متناقضاً من المشاعر المضطربة.. أولها أن هذا الشيء لا قِبل لي به، وآخرها أنني للأسف لا أملك أي وسيلة أعرفها لمجابهته.

وهذا يعني أن كل مواجهة معه ستبوء بالفشل، ومع هذا تملكني شعور عاصف بالغضب الشديد؛ لأنني شعرت بالضعف أمامه، بعد أن جعلت عتاة المجرمين يرتجفون أمامي، وقاتلت من كانوا يظنون أنهم فوق القانون، وفوق البشر.

الرياح تزداد سرعة وبرودة، والصمت القاتل يلف المكان. ألمح ضوءاً يتبدى لي من بعيد.. أتمنى أن تكون استراحة ما، وأجد بها هاتفاً يعمل، أو رجلاً يرشدني إلى تلك المزرعة التي لا أعلم كيف الطريق إليها.

حمداً للّه.. إنها استراحة بالفعل. اقتربت منها مع تزامن صوت الرعد المنذر، فتمنيت من اللّه ألا تفتح السحب بطونها الآن، يكفي ما أنا به من رجفة، لا أريد أن أضيف لها البلل أيضا.



الاستراحة ممتلئة بعدة مطاعم ومقاهٍ، معظمها مغلق ويعلوها الأتربة.. يبدو أن العمل هنا ليس رائجًا.. لمحت مقهى به حركة خافتة وأصوات تقطع هذا الصمت العاتي، فتوجهت إليه، وكلي لهفة في احتساء كوب من الشاي الساخن.. لمحت عدداً لا بأس به من الصحبة البشرية.. اثنان منهما يلعبان النرد، والآخرون يتابعون التلفاز الذي كان يعرض مباراة ما لكرة القدم.

ألقيت السلام فبادلوني بأحسن منه، ثم انتقيت ركنًا دافئًا تحيطه الجدران الخشبية المتآكلة.. الظلام يرقص بالخارج، والشيطان يغني.. مع دقات طبول الرعد الإيقاعية، والألعاب النارية للبرق الذي أخذ يرسم تعرجات كهربائية لامعة.. كرنفال كوني يحتفل ببدء دورة الرعب الأوليمبية، أو كأس عالم أبناء الليل.. طلبت من الساقي الأسمر كوبًا من الشاي، ارتشفت منه رشفة ساخنة عميقة — بعد أن أتى به — جعلت السخونة تتسلل إلى جوفي، وتبثها إلى سائر جسدي، قبل أن أسأله إذا كان يعرف مكان مزرعة الراعي، فجاءت إجابته بالنفي، لكنه عقب قائلًا:

– في الجهة المقابلة ستجد مزرعة «داليا» الشهيرة، أكمل الطريق وستجد العديد من المزارع هناك، لا بد أنها واحدة منها.



شكرته وحاولت متابعة المباراة بنصف وعي.. منذ متى لم أشاهد كرة القدم؟ ربما منذ كأس العالم قبل الماضي، قبل أن أتزوج وأنسى حياتي الماضية بالكامل.. السهر مع الأصدقاء، والتسكع في المولات، والجلوس داخل النوادي.. الزواج أسرع طريقة لدفن الحرية والمرح والانطلاق.. هذا لا يعني أنني لست سعيداً في زواجي، لكن وقت العزوبية لم تكن هناك امرأة تتصل بي كل لحظة لتسأل عن سبب تأخري، أو متى سأعود، أو تطلب شراء حاجيات المنزل حتى لو كانت لا تريدها فعليّا، أو تمنعك من ملاقاة أصدقائك متحججة بألف حجة.

إذا كانت زوجة صالحة ستمثل لك كل شيء، وتملأ عليك الدنيا كلها، حتى إنك لن تتذكر أهلك أنفسهم.. أما إذا كانت طالحة فستجعلك تفتقد كل هذا وأكثر. الذي شبّه الزواج بالنصيب لم يخطئ أبدا.

بدأت النقرات تدوي من فوقي، ثم انفتحت أبواب السماء فجأة.. لتغرق الوجود.

لا أعلم لماذا تملكني شعور عارم بالنشوة والحماسة، وأنا أراقب الأمطار الغزيرة المنهمرة، التي تكسو الأسفلت، وتغسل بلاط الاستراحة القديم، مع وميض البرق المتوهج، وصوت كلب ما ينبح في شغف آت من مكان بعيد.

لم أستشعر متعة هذه الأجواء سابقا، ولم أكن أدرك أنها بمثل هذا الجمال.

الطبيعة خلابة حقًا، حتى في هياجها.. وهذا جعلني أتذكر كم كنت سجينًا في قلب العمل، الذي يمتد إلى الساعات الأولى من الصباح، وبين جدران منزلي، لا أراقب شروق الشمس كما كنت أفعل وأنا صغير، أو ألهو في قلب أمواج بحر إسكندرية الساحر، وألعب في رمال شواطئها البيضاء، مكونًا قلاعًا ذات أبراج عالية من الرمال الندية المبتلة..

هذا ما أدركه الآن بوضوح.. أنني أمنع نفسي عن تلك المتع القليلة الزهيدة، في مقابل دوامة حياتية لن تنتهي، وقتها سأجد أن العمر قد مر، وصرت على أعتاب النهاية، وسأفتقد كل لحظة سعادة كنت أستطيع استغلالها.. لقد افتقدت متعًا عديدة لا تحصى، ولا مبرر لهذا إلا الانخراط في العمل كي أعتلي منصبًا ما، أو كي أحصل على ترقية استثنائية تساعدني في سرعة الترقي، أو ربما علاوة تساعدني على التصدي لغلاء المعيشة، ناسيًا أو متناسيًا أن كل هذا سيزول بعد الموت، ولن يمثل أية أهمية حينذاك.

الحياة قصيرة حقًا، والأفضل استغلالها فيما يسعدنا، وليس الركض خلف الشقاء والتعاسة.



أدرك الآن السبب الحقيقي وراء خروجي في ظل هذه الأهازيج الشتوية، والسعي وراء صديق لم أره منذ أمد بعيد.. ليس لمساعدته فقط، أو حتى لقتل الفضول الذي يعتري فؤادي..

السبب الحقيقي هو خوض مغامرة جديدة ليست في الحسبان؛ كي أكسر حالة الرتابة التي أعيش فيها دون كلل، إلى ما يقارب الخمسة عشر عاما.

حتى ولو كانت المغامرة هي محاربة الشيطان ذاته. أو هذا ما أعتقده.

* * *



(٤)

اربدَّت الدنيا مجدداً، وزادت الرياح صقيعًا، بينما أخذ الرعد يشرخ الوجود بزئيره ودمدمته العاتية.

كنت أقطع الطريق الذي صار موحلًا من جراء المطر، متجهًا إلى صف المزارع الذي دلني عليها الساقي، متوجسًا من هبوط المطر مجدداً.. ما زلت في قلب العراء دون جدران تحميني، أو سقف يمنع عني تلك الزخات الموشكة على إغراق كل شيء، في شهوة سادية.

أسوار المزارع السامقة يلفها الظلام، إلا من بعض المصابيح التي تعتلي لافتاتها.

مزرعة «داليا»، ومزرعة «الريان».. مزارع عديدة ليس من بينها مزرعة «الراعي».

خضت كثيرًا في الوحل، وقرأت أسماء عديدة، قاطعًا طرقًا ضيقة موحشة تملؤها الوحدة، ومشاعر الخوف والكآبة، حتى شعرت أنني بطل قصة إدجار ألان بو الكابوسية «سقوط منزل آشر»، الذي كان يقطع الطرق الخربة على صهوة جواده.

لمحتها بعد جهد تلوح على مبعدة.. الاسم لا يتضح من هذه المسافة، لكنني عرفتها.. لم



تختلف كثيرًا عما وصفه لي.. مظلمة كئيبة نائية مهجورة، تحيطها أسوار حديدية عالية كأنها قلعة الكونت دراكيولا.. تملأ أرجاءها الأشجار الضخمة المتناثرة كوحوش الظلام، بأغصانها وأوراقها، الشبيهة بشعر العجائز الثائر، حتى بدت لي أشبه بغابة صغيرة مرعبة، لا ينقصها إلا قطعان الضباع المتوحشة، بعيونها المضيئة، وضحكتها الشيطانية المخيفة.

قطعت الخطوات الباقية في عجالة، وأنا أشعر بامتنان كبير، أخيرًا سأجد جدرانًا دافئة، وسأروي فضولي الذي تضاءل الآن إلى حد كبير.. تملؤني اللهفة إلى رؤيته، والجلوس والثرثرة معه كما كنا نفعل قديمًا.

الحكي بين الأصدقاء له سحر خاص، يزيل عن المرء مخاوفه وهواجسه وقلقه واكتئابه، خاصة إذا تطرقنا إلى همومنا ومشاكلنا الخاصة، وما نكابده في هذه الحياة التعسة.. الأمر أشبه بشطف الروح مما علق بها، كي تعود نظيفة بيضاء كالثوب المغسول.

البوابة الحديدية مغلقة بسلسلة وقفل ضخم.. لماذا تركه مغلقًا بهذه الشكل، ألم يكن يظن أنني سآتي حقًّا؟ الأمر يبعث على القلق والهواجس.



تأملت إشارة هاتفي المحمول لأجدها قد عادت إلى العمل مجدداً.. هذا جيد.. لأتصل به حتى يأتي لإدخالي.. رنين متواصل دون مجيب.. اللعنة.. أنا لم أقطع كل هذه المسافة لأرجع خائب الرجاء.. سأتسلق البوابة إلى الداخل وليحدث ما يحدث.

ملمس حديد البوابة بارد وأملس كالثعبان، ببعض الجهد اعتليت قمته، وقفزت في الاتجاه الآخر.

المزرعة مظلمة كالكهف، والحشائش كثيفة مصفرة من كثرة التجاهل.. أتمنى أن تعيدها الأمطار إلى سابق عهدها.. عبرت بين الأشجار محاولًا البحث عن أي مأوى في قلب تلك الغابة، منزل أو فيلا أو حتى جرن.. أي شيء يحتوي على أربعة جدران، فليس معقولًا أن «حسام» يقضي لياليه نائمًا في الخلاء.

الرياح الباردة تعبث بقمم الأشجار، وزخات المطر تتساقط كخيوط فضية لامعة، وأنا تائه في قلب تلك الأدغال، لا أعلم إلى أين أذهب.. أين هذا المنزل اللعين؟ بحثت بنظري كثيراً، محاولًا اختراق حجب الظلام، وجذوع الشجر.. حمدا للّه.. ها هو هناك يقبع في الظلام كأبي الهول، يحرس المكان بعينيه المحدقتين إلى الأمام.

تقدمت قليلًا ثم توقفت بغتة بعد أن شعرت بحركة ما قريبة.. أرهفت السمع فخيل لي صوت كتهشم بعض الأغصان الجافة.. هناك شيء ما يتقدم بحذر في قلب الظلام السادر.. لا أعلم ما هو، ولا أراه، وإن كانت حركته حذرة متحفزة.

هل هو حيوان ليلي ما؟ ثعلب أو قط أو كلب؟ أتمنى هذا.

حاولت اختراق الحجاب الأسود، وأنا أخرج مسدسي استعداداً لأي خطر غير متوقع.. لم يظهر شيء حتى الآن.. ترى هل أكون واهماً؟

ربما.. اللعنة عليك يا حسام أين أنت؟

واصلت طريقي في هدوء حذر، فعاد ذلك الصوت مجدداً يتبعني، كأنه شخص ما يقتفي أثري، كي يعرف إلى أين سأذهب.. لكن هذا بعيد جدّاً عن المنطق لسبب بسيط، أنه لا يوجد هنا إلا منزل المزرعة، لا أعتقد أنه يظن مثلًا أنني في طريقي لإخراج كنز ما، أو حقيبة النقود.. لا يوجد هنا إلا البرد والظلام، وصديق سيواجه الشيطان.

رأيته يظهر بغتة من بين الحشائش، وعلى وجهه شراسة الدنيا.

هل ما أراه حقيقي، أم أنني أخرف؟

كان يشبه الكلب في هيئته، لكنه أضخم كثيراً حتى إن حجمه يقارب حجم الفهد.. لونه أحمر كالدم المسفوح، وله أسنان حادة كأسنان «تي ركس» في ذلك الفيلم الشهير.

أكثر ما أثار رعبي هو تلك العينان اللتان تشتعلان بلهب حقيقي.. نيران متوهجة تتأجج داخل محجري عينيه، وداخل فمه المنفرج عن زمجرة منذرة بالهول.

تراجعت وقد شملتني رعشة عاتية، وعجز عقلي عن اتخاذ أي قرار.. هذا الشيء ليس من عالمنا، ولا أعتقد أن الرصاصات ستؤثر فيه بأي حال من الأحوال.

ترى هل يكون كلبًا عاديًا، وقد ألبسه أحدهم هذه الهيئة المفزعة، كما حدث في رواية «كلب آل بسكرفيل»؟

صوبت مسدسي إلى رأسه، عازما على التأكد.

طاااخ!

دوي الرصاصة يتردد في قلب السكون كالقنبلة، والدماء تتفجر من رأسه.. يا للهول! هذا ليس دمًا



بالتأكيد، إنه أشبه بالحمم البركانية.. أراها الآن تتساقط على أوراق الشجر لتحرقها حرقًا، ويتصاعد من جوفها أبخرة كثيفة ملأت هواء المزرعة.

هذا ليس كلبا عاديًا بكل المقاييس. هذا كلب شيطاني، أتى من قلب الجحيم رأسًا.

لأفر إذن كأن شياطين الأرض كلها تطاردني. ركضت بكل ما يملكه رجل في أوائل الأربعينيات من قوة.. لم ألتفت لأرى ماذا يفعل، لكنني شعرت بخطواته تطاردني في إصرار عجيب، ومن جوفه تصاعد ذلك الزئير الشيطاني، الذي أخذ يرج أشجار المزرعة بعنف، وكأنما قد أصابها زلزال مدمر.

المنزل يقترب في سرعة، وأنفاسي تتلاحق في عنف، أتمنى أن أصل في الوقت المناسب، لا أعتقد أنني سأسعد بعضة من أسنان هذا الشيء، هذا إذا كان سيكتفي بهذا.. لو أمسكني فسيمزقني إربًا، ولن يتبقى مني إلا بعض الأحشاء المتناثرة.

الباب يقترب وسرعتي في ازدياد.. طبقًا لقانون القصور الذاتي سأصطدم بمنتهى العنف، وسأسقط إلى الوراء.. لكن هذا الفراغ الذي يطل من الداخل جعل صدري يتنهد في راحة.. الباب غير مغلق، كأنه ينتظر دخولي في لهفة.



قفزة واحدة وصرت في الداخل، لكن سرعتي كانت سببًا مباشرًا في انزلاقي فوق الأرضية الرخامية، واصطدامي بالمقاعد الموضوعة بتناسق في مواجهة الباب.. التفت ورائي وأنا ما زلت في وضع السقوط، لتقابلني نظرات الكلب الشيطانية، انقلبت على بطني، وأنا أصوب إلى جسده فوهة مسدسي و...

طاااخ!

ثلاث رصاصات متعاقبة لم تؤثر فيه بطبيعة الحال، لكن قوة ارتدادها دفعته إلى الوراء.

نهضت بسرعة محمومة كي أغلق الباب في وجهه، لكن رأسه البشع عبَر ذلك الفراغ بين الباب وإطاره، وحال دون ذلك.. واصلت دفعه في عنف، محاولًا الابتعاد عن ذلك الرأس الشيطاني الذي يتلوى في جنون، وعن هذه الأنياب التي تتلهف إلى قطعة من جسدي.

منعت الباب من الانفراج بيدي اليسرى، وبالأخرى عاودت تصويب المسدس إلى رأسه، محاولًا إطلاق النار عليه مجددًا؛ لكن هذا الوضع الصعب جعل من العسير أن أفعل الشيئين معًا.. حبست أنفاسي، وأنا أشعر بالإجهاد العضلي من جراء محاولتي

منعه من الدخول، وحاولت بعناد أحسد عليه تثبيت يدي المهتزة، في مواجهة رأسه الهائج.

صرخت من شدة الألم، وأنا أدفع الباب كي ينغلق تمامًا، وأسرعت بتحريك المزلاج حتى لا تكون أمامه فرصة في الدخول.

أنفاسي تتسارع بشدة من أثر الإنهاك، وعضلاتي تئن طلبا للراحة.

اللعنة عليك يا «حسام»!

بدلا من أن أجدك في استقبالي مرحبا، تترك لي مثل هذا الوحش القادم من أعماق الجحيم؟ لو لم أجد لديك تفسيرًا مقنعا الآن، فسأمزقك شر ممزق عند رؤيتك. ثق تمامًا في هذا.

* * *



(٥)

أول شيء فعلته هو تفحص المكان بدقة بحثًا عنه، لكنني لم أجد أي أثر له، كأنه تبخر تمامًا إلى غياهب المجهول.. أين ذهب هذا الأحمق؟ أتمنى من اللّه ألا يكون قد غلبه الشيطان.

المنزل يتكون من طابقين.. الأول مجرد صالة كبيرة بها مدفأة حجرية قديمة، وصالون حديث بعض الشيء، به عدة مقاعد وثيرة، نفس المقاعد التي اصطدمت بها أثناء عرقلتي.. هناك مطبخ به موقد وعدد من الأكواب والأواني وبعض المأكولات، وحمام نظيف نوعًا به عدد من المناشف، وقطعتا صابون، وماكينة حلاقة.. كأنه قام بتحضير تلك الأشياء في انتظار قدومي، قبل تبخره العجيب هذا.

الطابق العلوي به ثلاث حجرات للنوم، وباب يقود إلى السطح الممتلئ بعدد من الصناديق المهشمة وبعض الكتب الدراسية القديمة.. أما ذلك الصندوق الزجاجي الضخم، فلم أفهم ما فائدته.. كان ملقى على جانبه، وقد تهشم بابه في عنف واضح، تملؤه كتابات عجيبة بالدم الجاف، طمست الأمطار معظم حروفه.. لا بد أنه أداة جهنمية ما.



هبطت درجات السلم الخشبي المتآكل بعد أن ارتعش جسدي من لسعة البرد الذي يجول في السطح بحرية.. ملابسي ما زالت مبتلة، وجسدي في حاجة ملحة إلى التدفئة.. ثمة لوحة مخيفة على الحائط الذي يفصل درجات السلم العليا بالسفلى – (بسطة) كما يطلق عليها العامة – تمثل شيطانًا هائل الحجم، يلتهم رأس إنسان.

هناك حلية معدنية أعلى اللوحة في قلبها شمعة رهيبة سوداء.

هذا المكان أشبه بعرين الأبالسة.

أين أنت يا حسام، ومن الذي سيفسر لي كل تلك الألغاز المستغلقة؟

تنهدت وأنا أرتمي على أحد المقاعد الوثيرة، فارتجف جسدي مرة أخرى بسبب البلل.. المدفأة الحجرية الشبيهة بتلك التي تحتل القصور القديمة، تغريني بالدفء المنشود، والكتل الخشبية المرصوصة في انتظام بجوارها تناديني بلهفة العاشق.

ثمة كرسي هزاز أمامها يتحرك بفعل الرياح، على ما يبدو أن جلسة «حسام» المفضلة هنا، خاصة بعد

أن رأيت تلك البطانية الثقيلة الموضوعة في تناسق؛ كي تشعر الجالس بالدفء والراحة.

أغلقت النافذة الزجاجية الكبيرة التي تعلو المدفأة، وأنا أتأمل ستار الظلام في خوف مبهم، متوقعاً أن يهجم عليَّ ذلك الكلب فجأة.. لكن ما أثار هلعي كان شيئًا آخر، إنه تلك الجمجمة اللعينة التي تعلو المدفأة.. جمجمة أتت من ذلك العالم الرهيب الذي ترك آثاره في قلب كل ركن من المنزل.

كانت تشبه الإنسان إلى حد بعيد لولا تلك الأنياب الشبيهة بمصاصي الدماء، وهذان القرنان اللذان يعلوان قمتها.

اللعنة.. هل هذا الشيء حقيقي؟

لم أجسر على لمسه بطبيعة الحال؛ لكنني أخفيته بتلك الخرقة التي على ما يبدو كانت تُستخدم في مسح الزجاج، أو تنظيف سطح المدفأة.. أرجو فقط ألا يكون استخدامها في شيء آخر مخيف، كتجفيف لعاب شمهورش أو أي شيء من هذا القبيل.

لمحته لأول مرة يتوسط المائدة الخشبية الصغيرة، خطاباً يحمل اسمي موضوعاً فوق كراسة تشبه

المذكرات الشخصية، خط عليها بحروف أنيقة جملة «السجلات الحسامية».

هذا طريف.. «حسام» يحاول محاكاة السجلات الفاطمية، والحاكمية، والمستنصرية.. يظن نفسه المعز لدين اللّه الفاطمي.. فتحت الخطاب فوجدته كما يلي:

صديقي العزيز «صلاح»، لا أعلم إن كنت ستأتي الليلة، أم أن هناك ما سيمنعك من هذا.. الكسل، أو ربما الشيطان ذاته — كما أخبرني. ندمت كثيراً على استدعائك، وفكرت في المخاطر العديدة التي ستلاقيها في سبيل هذا؛ لكنني كنت أحتاجك بشدة.

مع مرور الوقت، وتأخرك الذي طال جعل أفكاري أكثر حكمة ودقة، ووجدت في تلك السويعات القليلة الحل المباشر في مجابهة الشيطان، وهذا جعلني أشعر بالراحة والأمان عليك أولًا وأخيراً.

لماذا كنت أحتاجك؟ وهل في رصاصاتك الحل السحري لإنهاء مشكلتي المخيفة؟

لا بد أن هذه الأسئلة دارت في عقلك وأكثر، ولا بد أنك تساءلت كثيراً عما يحدث معي، أو إلى أين ذهبت.. كل هذه الأسئلة ستجد إجاباتها في



السجلات الحسامية، التي بدأت تدوينها منذ عدة ليالٍ حتى يعرف الجميع أي رعب واجهته، وزدت عليها الليلة الفصول الأخيرة. صحيح أنها موجهة لك أنت بالذات؛ لأنك كنت الباب الرئيسي لهذا العالم الغامض المخيف.. لكنها في ذات الوقت موجهة إلى كل أحبائي ومعارفي الذين لا يعلمون شيئًا مما لاقيته.

ثمة كلب يحرس المكان، لا تقلق سيرحل عند لحظات الشفق الأولى، ولن تراه مجدداً، وستستطيع حينئذ مغادرة البيت في أمان.

تتساءل أي كلب هذا الذي له لون أحمر كالدم؟

يطلقون عليه كلب الجحيم يا صديقي، هبط من العالم الآخر خصيصاً كي يحرس أي نشاط خارق للطبيعة، وحجبه عن العامة. أرجو فقط ألا يصيبك بأي أذى، وأن تكون قد نجحت في الدخول إلى المنزل. لقد تركت لك الباب مفتوحا على أية حال، وأعتذر عن أي رعب أو قلق قد سببته لك دون قصد أو نية.

صديقك المخلص

«حسام الراعي»



عاودت قراءة الخطاب عدة مرات، وقد تملكني الغضب الشديد من استدعائه لي، ثم نسيان أمري برمته عندما وجد حلّا أكثر أمانًا وحكمة كما قال.. هذا الأحمق.. لماذا لم يفعل هذا منذ البداية؟

تأملت المذكرات التي تمت كتابتها بخط أنيق وواضح، وبحبر أسود يشع بقوة في قلب الصفحات الورقية البيضاء. لقد أكد أنني في أمان الآن، وإن كنت لا أستطيع المغادرة إلا قرب الفجر، بعد رحيل كلب الجحيم هذا.

لأستغل الفرصة إذن في إرواء فضولي الشديد، والاسترخاء بجوار نيران المدفأة المتأججة.

تذكرت عدة المطبخ، كوب من الشاي الساخن سيساعد في هذه الليلة الباردة المخيفة، وفي مساعدتي على التركيز في القراءة، التي نسيتها منذ دهر، أذكر أن آخر كتاب قد قرأته قبل زواجي بعدة أشهر.. رواية رومانسية لكاتبة حمقاء، لا تعرف الفرق بين الحب والجنس. ما علينا.

لأستغل الوقت الآن، قبل أن يمنعني شيء ما من القراءة، كما حاول منعي من الحضور؛ لكن صديقي أكد أن كل شيء قد انتهى.. هل انتهى حقّا؟

انتفضت فجأة عندما سمعت تلك الفرقعة التي رجت جدران المنزل.. ما الذي يحدث؟ ارتج المنزل بعنف أكبر، مع رائحة الجو المشحون بالكهرباء.. هل هو البرق؟

صعدت إلى سطح المنزل بسرعة كبيرة، واقتحمته بفضول قاتل، ليصدمني هذا المشهد العجيب الرهيب، أكثر المشاهد التي رأيتها في حياتي غرابة وأكثرها تخويفا.

* * *

وقفت في قلب السطح وسط كم المهملات التي تتناثر في أرجائه، عاجزًا عن تفسير ما يحدث، أو محاولة فهمه.. كانت ألسنة الصواعق الشبيهة بالعروق تضرب السطح في مواضع عديدة، محدثة انفجارًا ناريًا يتطاير شظاه في أطراف المكان، حتى بدا أشبه بالجحيم المشتعل.. من الذي قال إن الصواعق لا تضرب المكان نفسه مرتين؟ لا أذكر.. لكنه أحمق على أية حال.

توالت الصواعق في إغراق السطح بألسنتها الكهربية العملاقة، حتى خشيت على نفسي من أن أصاب بأحدها.. لو مستني صاعقة واحدة لتبخر جسدي في ثوانٍ معدودة.. تراجعت إلى الخلف في حذر، وأنا أراقب هذه الظاهرة العجيبة؛ لكن الخوف



شل أطرافي بشدة، عندما سمعت ذلك الصوت المرعب.

كان أشبه بزئير شيطاني عنيف، يتصاعد من قلب الغيوم الداكنة التي أخذت تدور حول نفسها في بطء، متخذة شكل دوامة كونية رهيبة.. ما الذي يحدث هنا بالضبط؟

اتسعت عيناي عن آخرهما في ذهول، وأنا أحدق في هذا الشكل الذي اتخذته الغيوم.. هل ما أراه الآن حقيقة، أم هذيانًا من عقل مكدود؟

وكيف لا أشك في سلامة عقلي وعينيَّ، وأنا أرى تلك الغيوم وقد أخذت تتشكل على هيئة وجه عملاق.. وجه بالغ البشاعة والرعب.. وجه أتى من عوالم لا نعلم عنها شيئًا، ولا قِبل لنا بمواجهتها، وإن كان ما نسمعه عنها كفيل بمنحنا لمحة تخفي ما هو أعظم وأشد هولًا.

كان وجه الشيطان ذاته، كما رأينا رسوماته تزين المتاحف وكتب التاريخ.

* * *

حدق فيَّ الوجه العملاق الضبابي المتموج بعينين أشبه بدوامات سحيقة، وفغر فاه بصيحة دخانية



يكتنفها الظلام، كادت أن تمزق طبلتي أذني.. من منا يتذكر أشد لحظة رعب في عمره كله؟ أنا لا أشك ثانية واحدة في أنها هذه اللحظة، وأكاد أجزم أن طقطقة الشعر التي أحسها في رأسي، هي بسبب استحالته إلى اللون الأبيض.. هذا المشهد كفيل بحرق شعر رأسي بأكمله، وإصابتي بسكتة قلبية، وإن كنت أرجو ألا يحدث هذا الآن.

لا أرغب في أن تترمل زوجتي، وهي ما زالت شابة.. لأغادر هذا السطح الذي صار شبيهًا بعوالم الرعب القوطي.

هبطت درجات السلم، وعقلي عاجز عن اتخاذ أي قرار، هل أجرب فرصتي مع كلب جهنم هذا، وأغادر المكان نهائيًا؟ أم أظل هنا حتى ساعات الفجر الأولى مستغلًا الوقت في قراءة تلك السجلات.. لماذا أخبرني أن كل شيء قد انتهى؟

حسمت أمري، وتوكلت على اللّه سبحانه وتعالى.

* * *

ها أنا الآن أجلس على هذا المقعد الوثير الذي يطل على المدفأة، التي زدت من وقودها.. في يدي يستقر كوب من الشاي الساخن، الذي يتصاعد منه



البخار.. والنيران المتأججة تلقي بضوء لهيبها على صفحات المذكرات.

سأبدأ الآن، وكلي أمل أن أجد إجابات عن حيرتي، وأسئلتي العديدة التي تعصف بعقلي.. توكلنا على اللّه، وقلبت أول صفحة لأجد...

* * *

السجلات الحسامية

للعبد الفقير إلى اللّه

"حسام الراعي"

ا– دعونا نعرف أكثر..

إنه حقّا عالم مخيف غامض يا صلاح، لم أكن أعرف عنه شيئًا إلا ما تحكيه عنه أمي، عن خاتم سليمان، والقمقم الذي به جني أقسم على منح من ينقذه أي أمنية يتمناها. أنت تعرف هذه القصة السائدة بالتأكيد.

ولك أن تتخيل كم يمثل هذا لخيال طفل مثلي، يحيا بين أفراد أسرة فقيرة، كثيرة العدد، فكما تعلم أن لي من الأشقاء اثنين، نسكن هذه الدار



الريفية الضيقة، لا نكاد نملك ما يسد رمقنا، حتى إنني لا أخجل عندما أخبرك أن في أوقات الجوع القارص، كنت أسد رمقي بأكل قطع من الطباشير والفحم، على الرغم مما قد يمثله هذا من خطورة على حياتي؛ لكن الحمد للّه لم يحدث لي شيء، لم أمرض أو أصاب بالسل كما كنت أعتقد، وإن كانت قد تكونت في عقلي فكرة طريفة ساذجة، وهي أن أمسك جنيّا، وأحبسه داخل قنينة، ليمنحني الأمنيات التي أحلم بها.. قصرًا فاخرًا ملحقًا به حمام سباحة، وسيارة ألمانية فارهة من أحدث طراز.. وزوجة خارقة الجمال.

هل سمعت عن شيء مثل هذا من قبل، أن تنسى أحلام الأطفال العادية، وتلك الأمنيات في أن تصبح طبيبًا، أو شرطيّا، وتنصب كل أمنياتك في فكرة ساذجة لن تتحقق أبدًا؟

كبرت قليلًا، وتناسيت تلك الفكرة، وإن كان كل تفكيري في المستقبل هو بداية إجازة آخر العام.. تخيل هذا!! الإجازة في حد ذاتها صارت أمنيتي الكبرى، ولا شيء آخر.. لا أحلام أو تطلعات من أي نوع، كما يفعل أصدقائي.. البعض يفكر في مشروع تجاري، والبعض الآخر في نيل شهادة عليا.. أما أنا كما قلت أرغب فقط في إجازة كي أرتاح قليلًا من جهد الدراسة، وألهو مع أقراني، أذهب إلى

سينما القرية الفقيرة، أو أجلس إلى القهوة كي ألعب الطاولة والدومينو.

وقتها أصاب أحد أصدقائي مس من الجان كما سمعت، وهذا أثار فضولي بشدة.. وما رأيته بعد ذلك كان كفيلًا بإحياء شغفي إلى هذا العالم الغامض، الذي يختفي خلف ستار أسود، لا يستطيع أحد عبوره.

رأيت صديقي هذا ممدداً على الأرض، يتلوى بألم شديد، وينتفض بعنف كمصابي الصرع، جسده يتخذ أوضاعًا شبه مستحيلة تشريحيًّا. فذراعه اليمنى تنثني عكس المرفق، ورأسه يدور إلى الخلف بزاوية مئة وثمانين درجة تقريبًا، ومن حلقه يتصاعد صوت أجش لا يمت لعالمنا بصلة، وبلغة غير مفهومة.. لا بد أنك رأيت شيئًا كهذا في فيلم «طارد الأرواح الشريرة»، لكن هذا ليس فيلمًا للأسف سينتهي ويذهب الجميع بعد ذلك إلى داره، بل حقيقة أشد هولًا وفزعًا بكثير. المشهد مرعب ومفزع لمن يراه لأول مرة، وربما لمن يراه كل مرة، فأنا ما زلت حتى الآن أرتجف هلعًا من أشياء رأيتها مرارًا وتكرارا.

هذه الحادثة جعلتني أكثر شغفًا وفضولًا في اختراق حجاب هذا العالم الغيبي، عالم الجن والشياطين، وكان أول كتاب اشتريته عنهم هو

«عالم الجن — أسراره وخفاياه». كتاب بسيط يقدم معلومات خاطئة بطريقة ساذجة، لكنني لا أنكر لحظة أنه المفتاح الذي أفادني في عدة نقاط كنت أجهلها.. المصباح الذي أضاء لي شعاعًا شحيحًا من الضوء، رأيت على أثره اللبنة الأولى في هرم الغيبيات الضخم.

في الأيام والشهور التالية صار مشهدي عجيبًا، وأنا أحضر تلك الكتب ذات الأغلفة الكئيبة الشيطانية، والأسماء المرعبة، أقرؤها بنهم، وأتعلم منها كل ما هو جديد بالنسبة لي عن هذا العالم، وعرفت وقتها أول معلومة حقيقية، جعلتني أكاد أطير من فرط السعادة. هل تعرف أصناف الجن يا «صلاح»؟ لا أعتقد أنك تعرف.

عرفت أنهم ينقسمون إلى سبعة ألوان: أزرق وأحمر وأصفر وأبيض وأخضر وأسود ورمادي، لم أفهم ما فائدة الألوان، هل هي كما في البشر، الأفارقة سود البشرة، والآسيويون صُفر... إلخ.. أم أن في الأمر فائدة أخرى؟

كما عرفت سلالتهم التي تنقسم إلى:

- الجن العادي: وهو أضعفهم.

• العفريت: وهو أسرع أنواع الجن وأكثرهم خفة عند الحركة وأكثرهم ذكاءً ودهاءً، وإذا تقدم في السن أطلق عليه «غول».

• المارد: وهو أقواهم من ناحية القوة البدنية، وأقلهم ذكاء. يتصف بصغر الرأس وضخامة الجسد وشدة العناد، وإذا تقدم في السن أطلق عليه «مُكبر».

• كل الأنواع السابقة قد يزيد في كفره وعناده وغيه فيصبح شيطانًا، وقد يطلقون عليه «شيطان مارد».

كما عرفت تقسيمهم من حيث التنقل:

• جان يطيرون ويسمونهم «الطيار » وهم أكثر الأنواع نسمة.

• جان زاحف ويسمونهم «زحاف» بتشديد الحاء.

• جان يحل ويظعن ويسمونهم «مشاي» بتشديد الشين.

وتنقلت بعدها بين كتب السحر الشهيرة، شمس المعارف الكبرى، منبع أصول الحكمة، شرح الجلجلوتية الكبرى، والكثير غيرها؛ لكنني لم أستفد منها بأي شيء في حياتي التعسة، ولم



تقدم لي أي علم ينفع باستثناء الخوف الذي تزايد من ذلك العالم المجهول، وبدأت أدرك وقتها أنني قد أضيع الباقي من عمري في البحث خلف الما ورائيات دون أدنى طائل.. سأختصر التغير في حالي، وتبدل تفكيري في جملة واحدة، هو أنني قد بدأت أنضج، وشعرت وقتها أن كل هذا محض هراء، ولأول مرة بدأت أستوعب حياتي القاسية، والفقر المدقع الذي يحيطني من كل جانب، ولا سبيل للخلاص منه إلا العمل الجاد والمخلص، في بناء حياة شريفة كريمة (أليس هذا ما يقولونه في كتب المطالعة؟)

وهنا بدأت حياتي تأخذ منحنى آخر.. الجامعة.

لقد نضجت فعلًا، اخشن صوتي، ونما جسدي وازدادت عضلاتي بروزًا.. وإن ظللت على نحافتي.. الشارب يخط أسفل أنفي كالزغب، والعقل يعمل كالمُرشح، يستبعد الأشياء التي يستحيل أن يقتنع بها المرء، ويوعز كل ما رأيت في صغري، إلى الأمراض النفسية، أو حتى حالات الصرع العنيفة.

تعرف يا «صلاح» بالطبع أنني اخترت دراسة التاريخ بالذات، وإن كنت لا تعرف السبب.

جذبني التاريخ بكل غموضه، وما يحمله من ألغاز مبهمة، فعمر الإنسان على الأرض لا يزيد عن

عشرين ألف سنة، ومع ذلك هناك آثار تتعدى هذا التاريخ بكثير. إنسان النياندرتال على سبيل المثال، يعود إلى مئات الآلاف من السنين.

هناك جماجم عمرها يتعدى المليون عام.. لمن هي؟ ومن هم أصاحبها؟

من الذين قاموا ببناء تماثيل جزيرة عيد الفصح؟ والأحجار الدائرية، والصخور الغامضة المرفوعة؟

لكن الدراسة لم تكن مشوقة كما كنت آمل، ولم تجب عن أي من الأسئلة السابقة.

اقتصرت على الحملة الفرنسية، واحتلال الإنجليز، وثورة عرابي، وغيرها من المعلومات الجافة التي يجانب الكثير منها الصواب. هل الأتراك الذين فتحوا القسطنطينية أخيار؟ هل محمد علي سفاح قتل المماليك، أم كان يخلص مصر من شر مستطير؟

المماليك أنفسهم هل هم أخيار حاربوا المغول، أم كانوا وبالًا على الدولة المصرية؟

قطز من المماليك ومنع هولاكو من احتلال مصر.

صلاح الدين نفسه اختلفوا حوله.



لا شيء مؤكد في التاريخ كله.. لكن هذا كان اختياري، ولا بد لي من إكمال دراستي مهما كان تقبلي للأمر من عدمه.

وهنا، وفي هذا الوقت تحديداً، عشت أكبر تجربة مرعبة ربما في التاريخ البشري كله، وعرفت خبرات لم أكن سأعلمها لولاً الحظ الغريب، الذي ألقى أمامي بهذه الأحداث المخيفة الغامضة، التي يشيب من هولها الرضيع.

هل تعرف الهامة؟

لا أعتقد أنك فعلت، وهذه هي فائدة خبرات الغير.. في السطور التالية ستتعرف إلى أشياء ربما ستسمع عنها لأول مرة في حياتك التعسة، وستنسى عالمك الذي يبعث على السأم، بشقائه وحروبه وفقره وأمراضه المزمنة.

ستنسى مهنتك كضابط شرطة، ومحاربتك للجريمة التي ترى فيها خطرًا عاتيًا على المجتمع.. ستترك كل هذا الآن وأكثر، وستهبط معي عبر درجات الظلام المدلهم إلى العالم السفلي.

هل أنت مستعد؟

* * *



٢- بداية الرحلة..

جاء تنسيقي الجامعي في القاهرة، وكما تذكر كنا نعيش معًا في مدينة السويس الباسلة، قبل أن ترتحل أنت أيضًا إلى العاصمة، وتدخل كلية الشرطة، وتستقر فيها بعد عملك وزواجك.

وقتها تحمست لفكرة السفر، والبقاء في العاصمة البراقة، وزاد حماسي وأنا أحمل حقيبتي فجرًا، أتمشى بين أرجاء المدينة الغافية التي سأودعها إلى حين، وأملأ صدري بنسمات الصباح الوليدة النظيفة، ماضيًا في طريقي إلى محطة القطار، التي يملؤها قلة من المغادرين، الذين ربما يملأ صدورهم الأمل في غد جديد مشرق، وأحلام قد تحققها الأيام لهم، أو ربما لا إذا كان حظهم سيئًا مثل حظي.

ركبت قطار الساعة سابعة صباحًا، وجاءت جلستي بجوار النافذة، أتأمل الطريق الملتوي، والحقول الخضراء الممتدة، وأشجار الفاكهة التي تمر على جانبيه بسرعة برائحتها الذكية.. بينما عقلي يرسم أحلامًا وردية، ومستقبلًا واعدًا باسمًا، وربما فتاة أحلام سألاقيها هناك كما أتمنى. فتاة جميلة تتقد ذكاء ومتحمسة للوقوع في حبي.

لكن ما قابلته هناك بعيد تماماً عن أرض الأحلام، ربما يقترب إلى مستنقع من الكوابيس المفزعة، أو ما هو أشنع.. هذا ما لم أكن أدركه بعد للأسف يا صديقي.

* * *

مشيت بين أزقة حي العباسية العريق، بحثًا عن عنوان المنزل الذي سأسكن فيه. كنت قد أجرته بمبلغ زهيد من صاحب العقار، وشعرت وقتها أن الأمور ليست على ما يرام؛ فالشقة لابد أنها تستأهل أضعاف المبلغ المتفق عليه، وهذا لا يعني إلا أحد الأمرين: أن الشيخ «عمران» صاحب العقار رجل زاهد ويعرف ربه، ويشعر بالآخرين من الفقراء أمثالي، أو أنه ينوي تناولي على العشاء.. هذه هي القصة دائماً.

لكنني لم أفكر كثيراً، ووجدتها فرصة طيبة فقمت باستغلالها، خاصة وأن الشقة ستكون ملكي وحدي، ليس معي أحد ليقلق راحتي، أو ينغص عليَّ حياتي، لا تنسَ أنني أحتاج الهدوء الشديد للمذاكرة.. المكان جميل وقريب للغاية من الجامعة، يملؤه عبق التاريخ العريق، ورائحة الماضي التي تنعش الروح.

من منا لا يغرق في نوستالجيا يبعثها خياله، متذكرًا أيام طفولته من لهو ومرح، أو حتى يتذكر إعلانات التلفزيون القديمة الممتعة، والمسلسلات التي صارت قطعًا كلاسيكية خالدة؟

العباسية حي جميل بكل المقاييس، وقد وقعت في حبه منذ اللحظة الأولى، تملؤه المقاهي، ومحال المشويات الشهيرة والعصائر، وباعة الصحف والمجلات والكتب القديمة، والكثير غيرها، مما يملأ المكان صحبة حميمة تمتد حتى ساعات الصباح الأولى.. هنا لن أخشى الأرق أبدًا، كما كان يحدث في منزلي وأظل طيلة الليل أتعذب من كثرة السهاد، لا تنسَ يا صديقي أن منزلي القديم يقع في منطقة نائية موحشة. يكفي هنا أن أهبط إلى المقهى الذي يحتل الطابق الأرضي في نفس البناية، مستمتعًا بصحبة الزبائن، أو أتمشى قليلًا إلى موقف الحافلات، أو ميدان عبده باشا، وربما أشتري صحف الغد لقراءتها، وبعض الشطائر الساخنة كي ألتهمها.. سأجد بلا شك شيئًا ما أفعله، يذهب بأرقي إلى غير رجعة.

البيت قديم كلح لونه، وتساقط طلاؤه بفعل الرطوبة وأشعة الشمس، وإن كان قوي البنيان كأهرامات الجيزة، تملؤه الشرفات الأثرية التي تشبه مشربيات الزمن الجميل. درجات السلم حجرية، يعلوها درابزين حديدي أسود، يعلوه مسند

خشبي ممتد في شكل دائري إلى أعلى.. سلم حلزوني إن كنت رأيت مثله من قبل فستعفيني من الشرح والوصف.. أبواب شققه من تلك التي بها نافذة صغيرة يسمونها «شراعة»، مهمتها معرفة من الطارق قبل اختراع العين السحرية بعدستها المحدبة، التي لا تكاد تظهر شيئا تقريباً.

كل طابق به شقتان، وكل شقة لها بابان يطلان على السلم، لم أكن أعرف السر في هذا، ثم أدركت بعد ذلك أن الصالة ليس بها أي نافذة أو منفذ للتنفس، كما لا يوجد منور؛ لذلك قاموا بتعديل هذا الخطأ بوضع باب آخر يجدد فراغها بنسمات الهواء العليل.

تعرف بالطبع مثل هذه الأمور، وتذكر كذلك هذا الباب بالذات الذي تجده دائماً في وضع الانفراج، تجلس أمامه امرأة تثرثر مع جارتها، أو تقوم بتنقية الأرز، وتقطع الخضر للغداء.

لا بد أن قابلت مثل هذه البيوت من قبل، وتعرف بالضبط عما أتكلم عنه.

هنا تجد دائما فتاة عانس مغلوبة على أمرها، يمنعها والداها من رؤية الجيران الأشقياء.



وهنا تجد طالبة حسناء مراهقة تفجر داخلك مشاعر الرجولة الحارة، بزيها الضيق وشعرها المسترسل، ورائحة العطر الطاغي الذي يدير الرؤوس.

لا بد كذلك من شيخ طاعن في السن، وهو هنا الشيخ عمران صاحب العقار، وشخص أو اثنين في سن المعاش قد تركهم أولادهم ناكرو الجميل، وزوج وزوجة حديثي العهد يحلمان بمستقبل سعيد.

هل أنت معي حتى الآن يا صلاح؟

إذن هيَّا بنا لترى شقتي من الداخل.

* * *

شقتي تقع في الطابق الخامس والأخير، وهذا لم يكن يؤذيني أو يتعبني في شيء؛ لأنني ما زلت شابّا قويّا، يتميز بالصحة والنشاط.. لا تنسَ كذلك أن حياة الريف صحية أكثر من حياة المدن.. في الجهة المقابلة شقة مغلقة لم أعرف أصحابها بعد، وإن ظهر جليّا من كيس القمامة أمامها، أنها مأهولة بما لا يقل عن ثلاثة أفراد.

يفصل بيني وبينهم باب خشبي مغلق يقود إلى السطح..

والآن إلى الداخل.

ها أنت الآن معي في الداخل، دع عنك حمل حقيبتي فهي ليست بهذا الثقل، وتعال معي لتفقد الحجرات.. هل ترى الحجرة الأولى، تلك التي بها خزانة ملابس عتيقة، وسرير مرتفع ذو أعمدة نحاسية.. نعم، إنها نفس الأعمدة التي كانوا يخفون فيها المسروقات في الأفلام المصرية القديمة.

الحجرة الأخرى لها باب خشبي من درفتين مزينتين بالزجاج، لا بد أنك خمنت أنها حجرة الصالون للضيوف.. أما الصالة الخارجية التي بها كنبة ومائدة وتلفزيون ملون قديم، فهي للسهر والمذاكرة وتناول الطعام.

هنالك طبعًا مطبخ وحمام، لا تظن لحظة أنني سأفعلها في الشارع، أو في حمام المقهى، أو أي شيء من هذا القبيل.

تتساءل عن جدوى كل هذه التفاصيل. مهلًا يا صديق، ستعرف كل شيء في حينه، وستدرك معي أن كل ما ذكرته ليس مجرد هباءً، أو ثرثرة

فارغة لا داعي لها، الشيطان في التفاصيل كما يقولون في الغرب.

* * *

–٣ فزع في سكون الليل..

بدأ الأمر في أول ليلة، أنت تعرف أن بداية الدراسة في شهر سبتمبر، والجو ما زال حارًا بعض الشيء، على الرغم من أن هذا الفصل رسميًا هو الخريف، لكنك تعرف المناخ في مصر، حر أو برد غالبًا، لا أجواء وسط؛ لذلك تركت النافذة مفتوحة لترطب الحجرة ببعض النسمات العليلة.

كانت تطل على ساحة مظلمة بها عدد من الأشجار الضخمة اليابسة، واحدة منها كانت قريبة للغاية من النافذة، وخلفها سماء داكنة مظلمة، تلاشت من داخلها النجوم.. ليلة كئيبة على ما يبدو.

كنت قد قمت بإفراغ حقيبتي داخل خزانة الملابس، ووضعت الحذاء الوحيد الذي أملكه والخف المصنوع من الفلين أسفل الفراش، ثم تمددت عليه استعدادًا للنوم. لا أعلم كم مر من الوقت حتى غلبني النعاس، وقتها زارني كابوس لا أذكر منه شيئا، إلا هذا الشعور المبهم الغامض الذي يضيق به صدرك، وتئن له عضلاتك.



أنا لا أحلم قط كما تعلم يا صلاح، أو ربما أحلم لكني لا أتذكر شيئًا عند استيقاظي، وهذا ما حدث معي في تلك الليلة العجيبة، استيقظت ليلًا وقد تملكني إحساس عارم بالفزع، وأطرافي كلها تنتفض بعنف، وقد احتشد العرق على جبيني وصدري، لا أعلم السبب، إلا أنه قد يكون كابوس ما زار عالم أحلامي، ولا أذكر منه حرفا.

حاولت الاسترخاء والنوم مجدداً، وما إن أغلقت عينيَّ حتى انتفضت من فوق فراشي كالملسوع؛ بسبب تلك الصرخة التي ترددت في سكون الليل، صرخة طويلة ممطوطة لا أتبين أية حروف منها، وكأنها تصدر عن حلق حمل يتم ذبحه بوحشية.

تعالت دقات قلبي برعب شديد، وأنا أدرك أن هناك شيئًا مخيفًا يحدث، ربما أحد الجيران يذبح زوجته أو أولاده.. لكن لا، هذه الصرخة ليست بشرية حتمًا.

أشعلت مصباح الحجرة؛ ليبدد بعض الظلمة والمخاوف التي تسربت داخلي، ونهضت إلى النافذة أجول ببصري في الخلاء، محاولًا معرفة مصدر تلك الصرخة، فليس معقولًا أن هذا الصوت الحاد المرتفع جاء من اتجاه الباب.. لقد كان بالغ الوضوح، ومصدره الوحيد المؤكد لي في هذه اللحظة، هي تلك النافذة المفتوحة على مصراعيها.



الظلام يعم كل شيء، ونسمات الهواء القليلة تداعب قمم الأشجار في لطف. ليلة هادئة وجو لطيف، لولا تلك الصرخة المفزعة.

هل كنت أتوهم؟ رجحت هذا.. أو ربما كانت صرخة صادرة من جهاز تلفاز مرتفع الصوت عند أحد الجيران.. عاودت إغلاق النور، بعد أن هدأت قليلًا.. وتمددت على فراشي أرمق السقف.. وشيئًا فشيئًا عاودت الغرق في النوم مجدداً.

لا أعرف كم مر من الوقت عندما استيقظت في المرة الثانية، الظلام ما زال جاثماً، والعرق ما زال يغمرني.. وتلك الصرخة ما زالت تدوي في الخارج.. شيء غريب ومرعب بحق.

وقفت في النافذة أراقب الظلام علني أرى الفاعل، لكنني تراجعت في هلع عندما هبت تلك الموجة الساخنة إلى داخل الحجرة.. دفعة من الهواء مجهولة المصدر ضربت الحجرة في قوة، أطارت الستائر إلى الخلف، وجعلت الفراش يتأرجح بعنف، والدولاب يتراقص كأن زلزالًا ما قد أصابه، وكادت تلقي بي أرضًا. حاولت إغلاق النافذة لكنني لم أفلح.

وواصلت الرياح الغريبة التوغل داخل الحجرة، مع ازدياد حدة الصرخة المخيفة لحظات، ثم هدأ كل شيء فجأة.



* * *

في الصباح قابلت عادل جاري الذي يقطن مع والديه وشقيقته الطالبة سعاد في الطابق الثاني. ألقيت عليه السلام، وسألته في حرج إن كان قد سمع شيئًا غريبًا ليلة أمس، فأجاب بالنفي، وهو يرمقني بنظرات غير مبالية.

تركته وهبطت الدرجات الحجرية في طريقي إلى الجامعة، عندما وجدت الشيخ عمران، الذي يقطن الطابق الأول، يغلق باب شقته في طريقه إلى الخروج. وجدتها فرصة حسنة لسؤاله هو الآخر، لكن جاءت إجابته بالنفي المطلق، لم يسمع شيئا، ولم يرَ أي شيء مريب، وعندما سألني عن سبب استفساري هذا أخبرته بقلق:

– خيل لي سماع صرخة ما غير معلومة المصدر.

نظر لي طويلًا بعينيه الكليلة، وقال في ود:

– ربما كنت تحلم لا أكثر.

بادلته النظرات، وأنا أفكر فيما قاله.. أهو حلم حقًا؟

الساعة تقترب من الثامنة. عليَّ اللحاق بكليتي، وليذهب أي شيء آخر إلى الجحيم.



* * *

تناسيت كل شيء، وأنا أحاول الاندماج في عالمي الجديد، الذي أخطو إليه أولى خطواتي.

الجامعة مزدحمة بألوان شتى من الفتيان والفتيات، بعضهم يحاول لفت الأنظار بارتدائه ملابس غاية في الأناقة، وكأن ساحة الجامعة قد تحولت إلى مباراة في إثبات من أفضل مِن غيره.. لكنني لم ألتفت إلى كل هذا، وحاولت التركيز في أولى محاضراتي، والتي كان يلقيها أستاذ جامعي صغير السن نوعًا، لكن تركيزي ذهب هباء، وأنا ألاحظ تلك الظاهرة العجيبة.

هل ترى تلك الفتاة؟

إذن أخبرني باللّه عليك لماذا يستطيل وجهها بتلك الطريقة؟!

دعكت عينيّ لأتأكد من أنني لا أتوهم، ويبدو أن دهشتي لفتت انتباه زميلي الذي يجلس بجواري، فلقد سمعته يقول لي:

– ماذا بك يا زميلي؟ هل أنت متعب؟



التفت إليه بحسن نية، لكن صرخة مذعورة تصاعدت من حلقي دون قصد، وذلك عندما وجدته يحدق فيَّ بعينين متسعتين للغاية حتى إنهما التهما نصف وجهه، سوداوين لأقصى درجة كأنهما فوهتي أحد كهوف الصحراء.

تراجعت بهلع وأنا أنقل بصري بين الطلبة الذين أخذوا يحدقون فيَّ بدهشة، وأسرعت أركض إلى باب القاعة، غير مبالٍ بالمحاضر الذي أخذ ينادي عليَّ بصوت مرتفع.

ما هذا الذي رأيته الآن؟

هل تعرضنا لغزو من قِبل مخلوقات فضائية؟

* * *

ظللت جالسا في ساحة الجامعة، لا أعلم ماذا أفعل، متسائلًا هل أصابتني لوثة مفاجئة أم ماذا؟

حقّا لا أعلم.

لم تمر الدقائق الخمس، حتى وجدت من تجلس بجانبي.. تأملتها بأنفاس مبهورة، وأنا أدعو اللّه ألا تكون منهم.. من هم؟ وكيف لي أن أعلم بحق الجحيم؟ لكن حمداً للّه كانت فتاة عادية، إحم لا



أقصد عادية من ناحية الجمال، أقصد أن لا شيء مفزع فيها، أو مختلف عن باقي الفتيات الطبيعيات.

كانت حسناء بكل المقاييس، نحيفة ورقيقة تشع بياضًا يخطف القلوب.. يتطاير شعرها الأسود الفاحم، فوق وجهها المتقن الخلق.. ربما لا تعلم أنني قد أسقط صريعًا أمام اللون الأبيض الشاهق، ذلك اللون الذي تشعر معه أنه يضيء في قلب الليل.

تنحنحت هي في حرج، وهي ترى فمي المنفرج كالأبله، وعينيَّ اللتين تجوبان في وجهها الفاتن.. سألتني في صوت لا يكاد يُسمع:

– ما الذي جعلك تصرخ كهذا؟

نظرت إليها طويلًا، وأنا لا أعرف ماذا أقول.. لكن دهاء الذكور الذي نتميز به، جعل كل رغبتي منصبة في أن أنال صداقتها بأية طريقة، حتى لو ظنت أنني مجنون؛ لذلك أخذت أقص عليها كل شيء منذ ليلة أمس، وحتى تلك اللحظة التي ركضت فيها كالمجاذيب.

انتظرت برهة أن تعلق بكلمة ما، لكنها ظلت صامتة كالقبر، ربما تفكر ما الذي جعلها تجالس

مجنونًا مثلي.. لكن لدهشتي الشديدة وجدتها تقول في صدق:

– أنا أهوى قراءة روايات الرعب، ومشاهدة الأفلام المخيفة، وما ذكرته لي الآن ليس له أي معنى، ولم أقرأ عنه أو أشاهده سابقا.

حملقت فيها بغباء وأنا أقول:

– وهل كل شيء مذكور في الروايات والأفلام؟ ألا يجوز أن هناك العديد من الأشياء التي لا نعلم عنها أي شيء بعد؟

هزت رأسها نفيا وهي تقول:

– صدقني.. كل تيمات الرعب معروفة، وأحفظها ظهرا عن قلب.

الحق يقال إنني شعرت للحظات أنها فتاة طيبة وساذجة.. أي رعب هذا الذي تأخذ معلوماتها منه عن طريق أعمال خيالية، أين هي من الواقع؟ هل رأت طفلًا ممسوسًا من قبل كما رأيت؟ هل تبحرت في كتب الجن والسحر؟ لا أعتقد هذا؛ لذلك ليس أمامي إلا مجاراتها، حتى لا أخسر صديقة حسناء مثلها.. أو ربما أخسرها، لا يهم هذا الآن.

الأهم أن أعرف ماذا يحدث لي بالضبط؟

سألتها وأنا أحاول تصنع الاهتمام:

– وما الذي يجعل فتاة مثلك مهتمة بالرعب، للدرجة التي تجعلك خبيرة بكل أنواعها؟

– د. أحمد خالد توفيق.

– من؟!

حملقت فيَّ بدهشة وهي تقول:

– عراب الجيل.. ألا تعرفه؟!

– اعذري جهلي، ولكن من هو؟

شخصت ببصرها كالحالمة، وهي تقول:

– هذا أعظم كاتب يمكن أن تقابله في حياتك.. أعشق كل حرف يكتبه، وكل كلمه يخطها.. بسببه عشقت الرعب من خلال سلسلته «ما وراء الطبيعة»، وأحببت بطله الطيب العجوز «رفعت إسماعيل».. ليتني أصير مثله في يوم من الأيام.. لقد نقل لنا خبرات هائلة لم نعشها إلا من خلاله، كان بمثابة نافذة على عالم كامل مجهول.. لذلك صدقني عندما أقول لك إنني على علم كبير بكل

مفردات الرعب.. ومصلحتك تقتضي أن تستفيد من هذه المعلومات التي أعرفها.

نظرت لها، وقد بدأت أفهم وجهة نظرها.. أعتقد أن معها حقًا تمامًا في هذا.. هي تملك خبرة لن أستطيع معرفتها إلا بعد عدة أعوام، وربما أفادتني في ما أواجهه.

أتمنى هذا وبشدة.

* * *

تركت «ميار» بعد أن عرفت اسمها، وأعطتني رقم هاتفها المحمول، بعد تأكيدها لي أنها ستبحث في الأمر بجدية، علها تعرف شيئا جديداً يضيء لي الطريق.

لم أكن أملك وقتها هاتفًا محمولًا؛ لذلك فكرت في اقتناء واحد أثناء عودتي إلى المنزل، فما أكثر محال المحمول التي يمتلئ بها ميدان العباسية.. لكنني قبل هذا عزمت على تفحص تلك البقعة التي أتت منها تلك الصرخات الليلية، ربما وجدت شيئًا يعرفني ماذا حدث بالضبط.

ألست معي في هذا يا صلاح؟

المنطقة عبارة عن رقعة خربة تقع بين بنايتين، تملؤها القمامة، وقطع الأحجار المتناثر في إهمال، وقد صنعت مياه المجاري المتسربة من مكان ما، بحيرة صغيرة أو مستنقعاً من الماء الآسن، يعلوه جيش من الذباب والناموس.. هناك عدد من الأشجار الضخمة، التي تحدت تلك البيئة الملوثة في صمود.

ثمة كلب يركض بحثا عما يسد رمقه.

مكان عادي كما ترى رأينا مثله الكثير في مدينتنا، ليس به ما يلفت الانتباه، إلا لو كانت هذه العجوز ذات الوجه المتغضن والعينين المشقوقتين طولياً بها ما يريب، والتي ظهرت فجأة من قلب الفراغ.

ألارتجف جسدي بشدة، وأنا أراقب تقدمها نحوي في خطوات بطيئة.

الذي أثار رعبي أكثر، أنني محاصر بين تلك الشجرة الضخمة، وهذا المستنقع الآسن، ولا مفر أمامي إلا المكان الذي تتقدم منه.

ماذا تريد مني هذه الجنية، أو أيّا كانت ماهيتها؟

اتسعت عيناها الشبيهتان بأعين الثعابين، وفغرت فاهاً له شفتان عجيبتان تشبهان

الخربشات.. لم تقل إلا جملة واحدة بصوت أجش مخيف:

– اهرب.. لا تمكث هنا!

لم أفهم حقّا ماذا تعني.. تخيل أن يظهر لك شبح مخيف ليخبرك أن تهرب منه!! هذا لا يعني لي أي شيء على الإطلاق.

لكنها أخرجتني من حيرتي، وهي ترفع أصبعها المخلبي ببطء إلى أعلى.

إلى نافذة حجرتي!!

* * *

–٤ يبدو أنه طائر من الجحيم..

ركضت أرتجف كمن أصابته حمى عنيفة، وعقلي عاجز عن اتخاذ أي قرار، هل ألملم حاجياتي وأفر كأنما يطاردني الجحيم، أم أبقى وأنتظر حتى يتضح لي كل شيء؟

ماذا تفعل لو كنت مكاني؟

جالت بخاطري فكرة ما، تألقت كمصباح صغير، وتساءلت وقتها وأنا ألعن غبائي، ما الذي جعل



الشيخ عمران يتقاضى مني مبلغًا زهيدًا؟ بالتأكيد يعرف شيئًا ويخفيه، لا أشك لحظة في هذا، لكن هل سيخبرني، أم يتركني أتعثر بالظلام؟

هذا اللعين.. ربما قتل شخصًا داخل حجرتي، وترك شبحه يقتص من الأبرياء الغافلين مثلي، أو ربما تستر على جريمة قتل.. أو كلاهما، لقد فعل شيئًا ما حتمًا، شيئًا جعل أبواب الجحيم تصب نيرانها على أم رأسي.

طرقت باب شقته في غلظة مقصودة، وما إن رأيت وجهه يطل من فراغ الباب، حتى بادرته بعبارة قاسية:

- أنت تعلم ما الذي يحدث في شقتي.. أليس كذلك؟ لا تحاول إخفاء الأمر.

لم ينبس ببنت شفة، اكتفى بالإشارة لي بالدخول.

صدمتني رائحة البخور القوية، التي يتصاعد دخانها من جوف مبخرة فضية عتيقة.

أشار لي بالجلوس، وجذب المقعد الخشبي الشبيه بمقاعد المقاهي، ثم جلس في مواجهتي قائلا:

- ماذا رأيت بالضبط؟

أخبرته بأمر تلك الصرخات، والعجوز المخيفة التي ظهرت لي خلف المنزل.

ضحك بشدة، وهو يسألني:

– ألم يحدث أي شيء مما رأيته داخل الشقة؟

حملقت فيه غير فاهم، فأعاد السؤال بصيغة أخرى:

– هل رأيت عجوز أخرى داخل الشقة، وهل تصاعدت صرخات مماثلة من إحدى حجرات المنزل؟

حركت رأسي بالنفي، فربت على كتفي قائلًا بهدوء:

– أي إن الشقة بريئة مما يحدث لك.. أليس كذلك؟

شعرت كأن دفعة من الماء البارد قد هبطت على رأسي.. إنه على حق تمامًا، الشقة لم يحدث داخلها أي شيء مطلقا، كل ما شاهدته حدث في الخارج.. حتى تبدل هيئة زملائي كان داخل الجامعة.. ماذا يعني هذا؟

شعرت بالحيرة تكاد تمزق عقلي، لكني أجبته بتردد:

– بلى.



نهض وهو يهتف بلهجة مرتفعة:

– ماذا تريد مني إذن؟

ثم ربت على كتفي، وجذبني برفق من ذراعي قائلا:

– اصعد يا ولدي إلى شقتك لترتاح، وانسَ كل ما تظن أنك رأيته.. الحياة وحيداً ستجعل كل حركة بسبب الرياح، وكل قرقعة بسبب تمدد الخشب بمثابة شبح مخيف.

تركت له جسدي، يسحبه وراءه كالخروف، عاجزًا عن التفكير المنطقي، أو إيجاد رد مقنع يكشف ما يخفيه عني.. لكنني تذكرت وأنا ما زلت واقفًا أمام عتبة داره كالأبله، ما فعلته تلك العجوز المخيفة.. لقد حذرتني من الشقة، وأمرتني أن أتركها وأهرب.

ألم تفعل هذا؟

لماذا إذن تركته يخرسني بهذه الطريقة؟

* * *

ترجلت في الطرقات بحثًا عن هاتف محمول، يناسب المبلغ الزهيد الذي أملكه، وجذبتني بالصدفة رائحة شواء شهية تتصاعد من قلب أحد المطاعم،



فتقلصت أمعائي من الجوع، وعزمت على تناول الغداء هنا، بعد أن أتم مهمتي.

وبالفعل اشتريت هاتفًا صغيراً ثمنه لا يتعدى المائتين جنيه، وجلست داخل المطعم أنتظر نصف الدجاجة المشوية التي طلبتها، مسليّا نفسي بتركيب بطاقة الهاتف، وتسجيل رقم صديقتي الجديدة والوحيدة حتى الآن «ميار»، مفكراً في الاتصال بها، ربما ساعدتني أحد أفكارها في فهم ما يحدث.. الحق يقال إنها فتاة ذكية، ومثلها مثل أية فتاة تهتم بالتفاصيل، وترى ما لم ألتفت إليه.. أم أنني كنت فقط أرغب في سماع نبرات صوتها الدافئ الساحر؟

حسمت أمري وقمت بالاتصال بها، متوجساً من رفضها الرد بسبب رقمي الجديد، وغير المسجل لديها بطبيعة الحال، لكن حمداً للّه ها هي ترد بصوتها المُسكر.

قلت لها بسرعة:

– أنا حسام يا ميار.. حسام الراعي.

ضحكت في عذوبة، وهي تقول:

– مبروك (العدة) الجديدة.



أجبتها وقلبي يخفق بشدة:

– اللّه يبارك فيكِ يا صديقتي.

ثم تنحنحت في حرج وأنا أستطرد:

– كنت أود أن أخبركِ بالتطورات.

سألتني في حماسة لا أجد لها ما يبررها:

– هيا أخبرني بالجديد.

حكيت لها كل شيء.. العجوز ذات العينين المشقوقتين، ورد الشيخ عمران الذي أخرسني، ثم ختمت حديثي قائلًا:

– هل لديكِ تعليل ما؟

قالت وهي تتنهد في حرج:

– لا.. ليس بعد، ولكن...

قلت بلهفة وأنا أحثها على التكملة:

– لكن ماذا؟

صمتت قليلا ثم أجابت:

– أعتقد أنها فرصة طيبة لاستكشاف الأمر.

لم أفهم ماذا تقصد، فقلت:

– ماذا تعنين باستكشاف الأمر؟

قالت بحكمة، وكأنها تشرح لطفل صغير:

– أنت محاصر بعدد من الألغاز المخيفة المحيرة.. أليس كذلك؟ في الحقيقة أجد أنها فرصة طيبة لإماطة اللثام عنها وحلها.

سألتها في شك:

– ولماذا أفعل؟

قالت في جزل:

– حتى تحيا حياة طبيعية.. ظننت هذا واضحا.

قلت وقد أصابتني خيبة ثقيلة:

– لقد ظننت أن لديك حلّا ما.

هتفت في حماسة:

– ليس الآن.. ربما غدا.



ثم أغلقت الهاتف، وأنا أرمق نصف الدجاجة الساخنة، التي وضعها النادل أمامي.

لماذا أشعر الآن أن تلك الصرخات الليلية، صادرة عن طائر ما؟ نعم، لقد كانت تشبه صيحة طائر.

* * *

تمددت على الفراش أتأمل سقف الغرفة، بعد أن أغلقت النافذة جيداً.. لا أريد أن يأتيني منها ما لا يحمد عقباه. أخذت أرمق الفراغ مفكرًا في ميار، التي جذبها إليَّ فقط هذا الرعب الذي يحيطني، ولا أفهم له سببًا.. تحاول في إصرار أن تقلد شيخها الطيب (رفعت إسماعيل)؛ كي تفوز بمغامرة ما.. على ما يبدو أن تلك الروايات التي تقرؤها قد جعلت منها خبيرة في الرعب، وتحاول تطبيق هذا في الحياة العملية.

قطع حبل أفكاري تلك الخبطة التي أصابت النافذة.. ما هذا يا ترى؟

خبطة أخرى جعلتني أنتفض في سرعة، وأهب واقفًا في تحفز.. هناك من يضرب خشب الشيش بالحجارة.. فتحتها في حذر محاولًا تفادي أي حجر مفاجئ، قد يصيب وجهي غدرًا، وبحثت بعيني عن المصدر، لكن لم يكن أمامي إلا السكون المطبق.



عدت أغلقها في إحكام، وعقلي عاجز تمامًا أمام ما يحدث هنا.. لكنني كنت أعرف موضوع تلك الأحجار المتقافزة؛ بسبب نشأتي الريفية، وسمعت عنها كثيرًا في صغري.. الأحجار التي تضرب النوافذ دون وجود من يلقي بها.. ربما بسبب الجن.. هل هذا ما يحدث معي الآن؟

ضربة أخرى تردد صداها بوضوح.. اللعنة.. ألن ينتهي هذا الرعب غير المبرر أبدًا.. ربما كان صبيًّا مشاكسًا ممن يهوون تحطيم النوافذ.

عدت أفتحها ببطء، وأرمق ستار المساء الأسود، محاولًا العثور على هذا المشاغب، فخيل لي أن هناك شيئًا ما يجوب قمم الأشجار.. شيئًا أسود غير محدد المعالم.. ألم أذكر أن الصرخات شبيهة بصوت طائر؟

كان طائرًا بالفعل.. له لون أسود حالك، وأجنحة عملاقة كأجنحة النسر.. اقترب من الشجرة التي تطل عليها النافذة بهدوء، ووقف يحدق فيَّ بعينيه الحمراوين كالدم.. لا لم يكن غرابًا إذا كان قد خيل لك هذا.. بل أعتقد أنه لا يشبه أي طائر آخر معروف، على وجه الأرض.

يبدو لي أنه أتى مباشرة من قلب الجحيم!!



***

٥- شيء ما جديد..

طائر مرعب مخيف، يقف ليرمقني بعينيه الحمراوين كالدم.

خمن يا صديقي ما هو؟

أما أنا فوقتها لم تكن لدي القدرة على التخمين، لا وقت لدي إلا كي أنتفض رعبا.

ظللت أراقبه في تحفز، وجسدي مجمد مكانه كالتمثال، لا أعلم هل يمارس معي التنويم المغناطيسي كما تفعل الوحوش الضارية والأفاعي، أم أن الرعب قد أصابني بالشلل؟

أما ما حدث بعد ذلك، فهو الرعب المجسد.

لقد انفرج فمه عن صرخة عاتية، كأن هناك من يشويه حيّا.. صرخة مزقت سكون الليل في عنف، وكادت تهشم نوافذ المنزل الزجاجية.

واصل هذا الشيء صرخاته المفزعة، حتى كاد يتلف أعصابي، ويمزق طبلتي أذني، ولم أملك أمامه إلا الصراخ أيضا كي أخفف من ضغط ما يفعل على عقلي، وما هي إلا ثوان معدودة حتى فقدت الوعي.

استيقظت بعد عدة دقائق، والسكون يعم كل شيء.

لا طائر، لا نسمات هواء، أو حتى حركة بسيطة لأوراق الشجر، وكأن الزمن قد تجمد فجأة.

نهضت وأنا مشتت الفكر، مفكك الأوصال، ولمحته، يقف في ركن الحجرة متدثرا في الظلام.

كيان أسود مخيف في حدوده الخارجية.. تراجعت بهلع شديد، وأنا أرى أن قواعد اللعبة قد تبدلت.. لقد انتقل الرعب إلى الداخل، وما زلت لا أفهم حقيقة ما يحدث.

ركضت بسرعة في اتجاه باب الحجرة المفتوح، لكنه انغلق في وجهي بعنف بفعل قوة مجهولة، ومن فتحته السفلية توهج ضوء أحمر مخيف، مختلط مع ضباب غامض.

ثمة أشياء تتحرك في الخارج، وتتقاطع أجسادها مع الضوء الأحمر، مع صوت يشبه الزئير الوحشي.. ارتجف جسدي من الرعب، وأنا حائر لا أجد لي أيٍ مخرج.. لذلك لم أجد ما أفعله إلا القفز فوق الفراش، وتغطية جسدي كله بالغطاء، عله يصنع حاجزاً يمنع تلك الأشياء عن النيل من جسدي.. لحظات قليلة مرت قبل أن أجد الغطاء يُنتزع من فوقي



بعنف، وذلك الكيان المخيف يتقدم ناحيتي ببطء يحطم الأعصاب.. قبل أن يتوقف فجأة دون مبرر.

اهتز لحظات كموج البحر، ثم تلاشى دفعة واحدة، مخلفا وراءه الظلام، ولغزًا جديدًا مرعبًا.

لقد هدأ كل شيء مجددا، وعاود الباب انفراجه.

اللعنة.. لن أبيت هنا ثانية واحدة بعد الآن.

* * *

أخذت أتسكع في الطرقات حتى لحظات الفجر الأولى، وجسدي ما زال ينتفض رعبًا، متزامنًا مع دقات قلبي التي ارتفعت إلى حد مذهل، حتى خشيت عليه من الانفجار. هذا المنزل مسكون بالأرواح الشريرة، كان يجب أن أعرف هذا منذ البداية، لا يوجد تفسير آخر لديَّ، ولن يوجد.. شيء ما مرعب حدث في شقتي، والآن يحاول الظهور محيلًا حياتي إلى جحيم، على الرغم أن هذا لا يتسق مع قصص الأشباح المعروفة عادة.

ثمة اختلاف واضح كبير.. ولكن من قال إن قصص الأشباح المتداولة حقيقية، وليست من خيال راغبي الإثارة، والساعين وراء الشهرة؟ ربما إن المسألة ليست شبح جريمة قتل على الإطلاق.. من يعلم؟



أليس هناك احتمال آخر، كممارسة السحر الأسود، أو حتى محاولة خرقاء لتحضير الأرواح؟

عقلي يعمل بصورة جيدة ومنظمة الآن.. نعم هذه احتمالات جيدة، وربما حدث شيء منهما بالفعل. لكن من الذي سيدلني على الحقيقة؟

هل تصلح ميار لهذه المهمة؟ ماذا عن عراف، أو شيخ ممن يحرقون البخور، ويتلون بعض التعاويذ والتعازيم الشيطانية.. أم أن كلهم حفنة من النصابين؟ يا إلهي ماذا أفعل؟

ظللت هائماً على وجهي، أجوب الأزقة والحارات، حتى وجدت نفسي قرب ميدان عبده باشا، ثمة مقاهٍ عديدة، تتصاعد منها الأصوات المتحمسة، ورائحة دخان الشيشة.. يبدو مكاناً مؤقتاً أجلس فيه لتمضية الوقت، حتى ساعات الصباح الأولى، ربما وجدت وقتها الشقة نظيفة، من أية مخلوقات جهنمية، أو أشباح عابثة.

* * *

لمحت ميار تقترب مني، وأنا مشغول بالبحث عن قاعة المحاضرات.. تنهدت في راحة، وأنا أدعو اللّه في سري أن تفتح معي هذا الموضوع مجددا.

سألتني بحماسة:

– هل هناك جديد؟

أجبتها ساخرا:

– نعم.. طائر هارب من الجحيم، وشبح متدثر في الظلام.

جذبتني من ذراعي في جدية، وهي تقول:

– لا بد من أن تقص عليَّ كل شيء.

وفي قلب الكافية، جلسنا معًا نحتسي القهوة، ونثرثر حول تلك الأشياء، التي صار مجرد ذكرها، كفيلًا بإلقاء الرعب في جسدي طيلة اليوم.. من يرانا الآن سيظن أننا زوج من العشاق، يحلم بحياة وردية، ولن يدرك أن محور الحديث يدور حول الأرواح والأشباح والعفاريت.

قالت في جزل:

– خمن من سيحضر على الغداء؟

تذكرت الفيلم الأمريكي، التي تدور أحداثه حول دعوة فتاة بيضاء لشاب أسود ترغب في الزواج منه على مائدة عشاء أسرتها.. قلت مازحا:

– سيدني بواتيه.

لكزتني في صدري وهي تهتف:

– هل تمزح الآن.. لا إنه شخص آخر.. هل تذكر حادث بني سويف؟ عندما كان منزل المهندس يشتعل فجأة من تلقاء نفسه، وعجز الجميع عن تفسير ما حدث؟

– إحم.. في الواقع لا.

– كيف؟ لقد تناقلتها وسائل الإعلام لمدة شهر كامل.

– هذا يحدث دائمًا معي.. هناك أشياء كثيرة لم أسمع عنها في وقتها، إلا بعد مرور شهور عديدة.. لست مهتمّا بمتابعة الأخبار، يكفي ما في واقعي من شقاء.

– لا عليك.. هناك شاب في أوائل الثلاثينيات من عمره، اسمه أدهم، يجيد التعامل مع مثل هذه الأمور، وهو نفسه الذي قضى على ظاهرة حريق منزل المهندس.

– ولماذا قمتي بدعوته على الغداء؟

- لست أنا.. والدتي التي فعلت، فهو بالمناسبة ابن خالتي.

- هل تعتقدين أنه قادر على حل مشكلتي؟

- لا أعتقد.. بل أنا متأكدة من هذا.

- حسنا.. لا تنسي أن تقصي عليه كل حرف، ربما كان على يديه الشفاء.

حملقت في وجهي لحظات، ثم قالت متعجبة:

- أحكي له؟ أنت مدعو إلى منزلي يا صديقي، وستقص عليه كل شيء بنفسك.

بادلتها النظرات، ولم أجد ماذا أقول.

* * *

جلسنا معًا نحن الثلاثة، في حديقة منزل ميار، نرتشف أقداح الشاي الساخن، بعد أن انتهينا من تناول الغداء الدسم.. الحق يقال إن أسرتها الصغيرة طيبة وخفيفة الظل، لم أقابل من قبل والدين ثريين بمثل هذا التواضع، وأصالة النفس.

أما عن أدهم فهو شاب صغير في أوائل الثلاثينيات، نحيف مثلي، وله لحية سوداء تزين

وجهه.. أخرج جواله، وعرض عليّ صورة طائر مرسومة، وسألني في اهتمام:

- هل يشبه هذا؟

أشحت برأسي نافيا، فقال بحيرة شديدة:

- ما حكيته الآن يتشابه معها، وفي ذات الوقت يتنافى تماما مع وصفها، وإنني لحائر.

سألته مستفهما:

- معها؟ من هي؟

أجاب في جدية شديدة:

- الهامة يا صديقي.. الهامة.

تبدو لي الكلمة أشبه بالهوام، فهل هذا ما يقصده؟ نقلت سؤالي إليه فقال:

- لا.. إنه شيء آخر مختلف كليّا.. الهامة طائر مخيف، يخرج من رؤوس جثث الضحايا طلبًا للثأر.

ارتسم الذهول على وجهي، وقلت:

- رؤوس ماذا؟!

نهض من جلسته شارحا الأمر لي:

– اسمها الهامة أو الصدى.. في معتقدات العرب قديمًا، يزعمون أنه يخرج من رأس القتيل، الذي لم يؤخذ بثأره، ويظل يصرخ قائلا: اسقوني من دم قاتلي.. فإذا أخذ بثأره طارت، واختفت عائدة إلى عالمها.

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي

أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

كما قال الشاعر ذو الإصبع العدواني في ذلك.. هناك حديث عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم يقول: «أعوذ بكلمات اللّه التامة من كل شيطان وهامة، وكل عين لامة».. لن أزعم أنني من مفسري الأحاديث الشريفة، ولا أريد أن أخوض في مثل هذه الأمور الشائكة، لكن لاحظ كيف أن كلمة الشيطان مقرونة بالهامة.

سألته مرتجفا:

– وماذا يعني هذا؟

قال في شرود:



– سأقول لك.. الهامة رمز من رموز الظلام.. وسيط بين عالم الأحياء والموتى.. تتوحش وتصيح مطالبة بالثأر، تذر العمران، وتسكن الخراب والديار المعطلة الخاوية من أهلها.. حيث مصارع القتلى، وجثث الأموات الهائمة أرواحها في قلق بين عالم الأحياء.

صمت برهة ثم استطرد:

– خلاصة الأمر أن هناك قتيلًا يسكن جدران دارك.

* * *

٦- التطهير..

سألته وقد تذكرت شيئا:

– ولكن ماذا كنت تقصد بشأن الاختلاف؟

أجاب بتردد:

– تلك الهيئة التي وصفتها لا تنطبق قط على وصف الهامة.. أنت رأيت شيئًا آخر يتخذ نفس صفاتها.

قلت في حيرة:



– ربما ليس لها شكل محدد.. أو أن من وصفوها قديمًا قد أخطؤوا بشكل أو بآخر.. لا يجب أن نأخذ معلومات التاريخ بشكل مؤكد.

حرك رأسه يتأمل الأشجار، وغمغم قائلا:

– ربما.. أو ربما كان شيئًا آخر.. لن نعرف إلا إذ بت الليلة معك.

صفقت ميار بكفيها في جزل، وهي تهتف:

– رائع.. ليتني كنت أستطيع المبيت هناك.. لكنني سأكون معكما بقلبي، وهاتفي المحمول.

ابتسمت على الرغم مني وأنا أقول:

– لا تقلقي.. أعدكِ أن نذبحها، ونحضرها لكِ على طبق من البقدونس.

هذا إذا ظللنا أحياء حتى مطلع الشمس.

* * *

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء، والليل يسدل عباءته على منازل الحي السامقة.



جلست على المقهى الذي يقع أسفل البناية نفسها، منتظراً المدعو أدهم.. لم أصعد لأعلى منذ أمس، ولن أصعد إلا بصحبة أحد يأخذ بوحدتي، وفضلت على ذلك قضاء معظم الوقت على هذا المقهى الممتلئ بالصحبة الآدمية، ولحسن حظي تعرفت على عدد من المسنين الظرفاء، الذي يملكون كنزاً من حكايات الزمن الجميل، ولن أبالغ لو قلت أن أحدهم كان صديقا شخصيّا للفنان أنور وجدي، الذي أعشق أفلامه كثيراً.

ظل يحكي لنا كيف بدأ فقيراً، وكيف اجتاز دروب القاهرة بحثًا عن فرصة مناسبة للتمثيل، كما تطرق إلى الفنان محمد فوزي الذي مات بسبب مرض غامض غير معروف، أطلقوا عليه اسم مرض محمد فوزي!!

حديث شائق وممتع، ولولا أن حالتي النفسية في الحضيض لجلست معهم حتى الفجر.. لكن رأسي مثقل من قلة النوم، وعقلي مشتت وتائه في انتظار قاهر الأشباح هذا.

تعالى صوت المذياع العتيق بأغنية شجية لعبد الحليم حافظ، لا أكاد أتبين كلماتها، لكنها أرسلتني إلى الماضي البعيد، عندما كنت لا أزال صبيّا في مرحلة الإعدادية، لا يشغل عقلي إلا لعب كرة القدم، والركض وراء زملائي.. ومشاكسة



الفتيات، وتخيل الوقوع في حبائلهن.. ترى أين هم الآن؟ وإلى أين وصلوا في حياتهم البائسة.

انتبهت إلى أدهم الذي أخذ يناديني بصوت مرتفع.. حمداً للّه لقد جاء.. أشرت له أن يأتي لشرب بعض الشاي، لكنه أجاب أن لا داعي لهذا، فهرعت إليه مصافحًا إياه بحرارة لا داعي لها في الوقع، وأشرت إلى باب البناية وأنا أقول:

– هذه هي.

أطرق برأسه دلالة على المعرفة، وعدل تلك الحقيبة السوداء على كتفه، وهو يشير بكفه قائلا:

– هيا بنا.

حبست أنفاسي قليلًا، في محاولة ساذجة لتهدئة خوفي، ثم بدأنا نصعد درجات السلم المتهالك إلى أعلى.. قال لي مشجعا:

– لا تخف.. الأمر بسيط جدّا.. سنحرق الجثة، بعد أن نستخرج أحشاءها و—

صحت في هلع:

– ماذا؟



ضحك وهو يربت على كتفي:

– إنني أمزح معك.. الأمر بسيط فعلا وسترى.

* * *

ترددت الآيات القرآنية في أرجاء المكان، بصوت الشيخ المعجزة مصطفى إسماعيل، الذي حار في أمره المطرب والملحن الشهير محمد عبد الوهاب، والذي لم يعتقد يومًا أنه سيقابل في حياته شخصًا متمكنًا من مخارج حروفه، وإلقائه إلى هذا الحد المستحيل.. يكفي أن يسمع المرء تجويده للآيات حتى يصاب بالذهول العارم.

رقية شرعية كما أخبرني أدهم، وهدفها كما نعرف هي طرد أي عمل أو سحر أو حسد، أو أي كائن شيطاني أو شبح غير مرغوب فيه.. ومن زجاجة كبيرة قرأ عليها آيات قرآنية معينة، أخذ يرش الماء، في كل ركن من أركان المنزل.

تطهير المنزل – كما قال لي – من كل ما سبق ذكره.

بعد أن انتهى من رش كل الأركان، بدأ في فحص كل شبر كمحقق جنائي محترف. فحص الجدران وطلاءها، والبلاط المربع الذي يكسو الأرضية..



السقف، وخزانة الملابس.. المطبخ والحمام.. فحص كل سنتيمتر في المنزل كله، وبعد الانتهاء، جلس والعرق يكاد يغرقه، ثم قال:

– لا شيء هنا.. طلاء الجدران يبدو لي أنه موجود منذ مولد البناية، والبلاط كذلك، لا شيء فيه يدل على تغييره.. لا انبعاج.. لا رائحة كريهة.. لا شيء.

– وماذا يعني هذا؟

جفف عرقه، وهو يجيب:

– يعني أن المنزل نظيف، وخالٍ تمامًا مما ظنناه فيه.

– هذا غريب.. والطائر؟

رمق الظلام خلف النافذة، وقال:

– لا ضير من انتظاره.. ربما يلقي ببعض الضوء على ما يحدث.

وفي قلب الصالون الذي لم يرَ ضيفًا منذ أن سكنت هنا، جلسنا نحتسي الشاي، ونرمق الشرفة الواسعة، التي لم تلفت انتباهي إلا الآن.. سألني بفضول:

– الصالة هنا أوسع، ولها شرفة رائعة.. لماذا لا تبدل حجرتك بها؟

سؤال غريب لم يخطر على بالي من قبل، ربما لأن هذه أول مرة أدخل فيها إلى هنا، وربما لأنني أشعر أنها ليست شقتي حقّا، ولا يجوز تعديل أي شيء دون الرجوع للمالك.. قلت وأنا أرمق فراغ الصالة المطبوعة بروح الماضي:

– لم أفكر في هذا، وصراحة لا أرتاح له كثيرًا، لا أريد أي تغيير يبدل من تناسق المنزل.

أنهيت الجملة وعيناي تتفحصان ذلك الراديو العتيق، البالغ الضخامة.. راديو يعد أثرًا حقيقيّا من زمن غابر.. بالتأكيد كانوا يلتفون حوله في الأمسيات السعيدة، يستمعون إلى مطربي الستينيات.. ترى هل ما زال يعمل؟

صوت أدهم يأتي من داخل الشرفة:

– الوقوف هنا أكثر متعة.

وقفت بجواره أرمق السماء الرصاصية، والأشجار التي تصفعها نسمات الهواء، متفحصًا الأفق عن ذلك الطائر اللعين.. لماذا لم يظهر حتى الآن؟ هل كنت



أتوهم؟ وكما ملأني الفضول عن الطائر، ملأني أكثر عن رفيق ليلتي، فسألته حائرا:

– كيف لشاب مثلك أن يمتلك مثل هذه الخبرات؟

حكى لي قائلًا:

– بدأ الأمر منذ حوالي ثمان سنوات.. كانت شقيقتي قد خطبت إلى أحد أقاربنا، وبعد الانتهاء من حفل الخطوبة، وخلودنا إلى النوم، استيقظت بفزع على صرخاتها.. هرعنا أنا ووالداي بسرعة إلى حجرتها.. كانت تبكي وتقول من بين دموعها جملًا غير مترابطة.. وبغير قصد شاهدت شيئًا مخيفًا.. كانت هناك قطرات من الدم تمتد من الفراش إلى باب الحجرة.. سألتها بفزع إن كانت قد أصيبت أو جرحت، لكن إجابتها ألجمتني.. قالت في رعب إنها جرحته.. من هو؟! كائن ما دخل حجرتها وحاول الاعتداء عليها، وهو يصرخ أنها له ولن تكون لغيره أبدًا.. لك أن تتخيل وقع هذا علينا.. لقد ظننا بعقلها الظنون.

صمت قليلا ثم أكمل:

– ثم بدأت تلك الكوابيس الغامضة تزور لياليها.. جزيرة غامضة في عرض البحر، بها مخلوقات مخيفة تنهال عليها ضربًا بالسياط، محاولة إجبارها على



ترك خطيبها إلى الأبد.. ذهبنا بها إلى أحد الأطباء النفسيين، والذي أخبرنا أن حالتها النفسية في تدهور بسبب شيء ما، لا يدرك كنهه.. هنا قالت والدتي إن الشيوخ فقط هم القادرون على علاجها، وأن في الأمر مسّا من الجان.. لم أصدق ما تقوله، ولم أجد في نفس الوقت أي تعليل، لو كان لا بد من شيخ يراها، يجب أن يكون على ثقة.. لكن كيف سأعرف هذا.. هنا فكرت في اختبار بسيط.. سأدعي أنني ممسوس، وسأغير اسمي وسني وعنواني.. لا بد أن الشيخ الحقيقي سيعرف أنني أكذب.. ويبدو أنني كنت بارعًا، لدرجة أن خمسة ممن قابلتهم صدقوا أكاذيبي.. حتى قابلت الشيخ قناوي.. في الثمانين من عمره.. عرف اسمي وما أصاب شقيقتي دون أن أفتح فمي.. إنه بارع حقّا.. نظر لي وقتها متفحصًا، ثم أخرج ورقة صغيرة، كتب عليها باللون الأحمر، ثم قربها من شفتيه وهو يتمتم بكلمات غير مسموعة.. بعد ذلك أشعل الكثير من البخور، وقرب الورقة من الدخان المتصاعد مقلبًا إياها ظهرًا لبطن، وطلب مني أن أجعل شقيقتي تضعها في الماء، وتقف داخل وعاء كبير من البلاستيك، وتصبه على رأسها، ثم تأخذ الماء المخلف من هذه العملية، وتلقي به بعيدًا.. وقتها ظننت أن ما يقوله محض هراء.. لكن بعد شفاء شقيقتي عرفت أنه يفهم فعلًا في هذه الأمور،



ومن وقتها لم أفارقه أبداً، وتعلمت منه الكثير والكثير، حتى صرت شيخا أنا الآخر.

ثم بدأ يتطرق إلى الحوادث العجيبة التي قابلها في طريقه، واستطاع التغلب عليها جميعًا بقدرة يحسد عليها.

حكا لي عن منزل المهندس الذي تشتعل فيه الحرائق كل نصف ساعة دون سبب واضح، وعن المارد الذي رآه يمسك عصا وله عينان مشقوقتان تشع منهما النيران، والفتاة التي خطفها الجن إلى جزيرة غامضة!! وطالب الجامعة الذي تشع من عينيه نظرات شيطانية تجذب النساء، وعن عروس الجان – كما أطلقوا عليها – والتي يحتل جسدها أربعة من الجن دفعة واحدة!!

حكايات مخيفة ومريعة، لها سحر ومتعة لا أنكرهما، خاصة مع الليل الساكن، الذي تسبح فيه الشرفة، ونسمات الفجر الوليدة التي تداعب وجهينا.

ليلة ممتعة ومرعبة لو حاولت اختصار الأمر.

أوينا بعد ذلك إلى النوم، بعد أن أكد لي أن كل شيء قد انتهى، ولن يعاود الطائر ظهوره.. يبدو

أن عملية التطهير كانت ناجحة، أو أنني كنت أتوهم.. حقيقة لن أعرف أبدا.

أعترف أنني خلدت إلى نوم هادئ مطمئن في حجرتي، لم يعكره شيء مما توقعت حدوثه قط.

إلا لو كانت تلك الخطوات المتلصصة، التي تجوب الطرقة أمام باب شقتي، وتعتلي درجات السلم الحلزوني، بفعل شبح ما.

* * *

–٧ هدوء مؤقت..

في الصباح، عندما كنت في رفقة أدهم، كي أوصله إلى محطة مترو الأنفاق، قابلتني مفاجأة سارة.. وجدت والدتي وشقيقيَّ خالد وهند، في طريقهما لزيارتي.

أمي محملة بحقائب تتصاعد من داخلها روائح الفطائر، والمش، والبط المحمر، لا بد أنها استدانت من الجميع، حتى تأتي لزيارتي بكل هذه الأطعمة.. وإخوتي يساعدان في حملها.

عانقتها في لهفة وشوق، وقلت:

– أوحشتني كثيرا يا أماه.. ما كل هذه الأشياء؟



ضحكت وهي تقول بلكنتها الفلاحي:

– كله من خيرك يا ولدي.. لا بد أنك تحتاج إلى ما يسد رمقك، حتى تستطيع المذاكرة جيدا.

بادلتها الضحكات، وأنا أقول:

– هذا لن يسد رمقي فقط.. هذا سيسد باب الحارة نفسه.

حملت عنها الحقائب، واتخذنا طريق المنزل.

* * *

انهمكت والدتي في تقطيع الكوسة، بينما ظلت هند الصغيرة ذات السبعة أعوام، تتابع شاشة التلفزيون الصغير بعينين نهمتين، المسكينة لم ترَ تلفزيونًا في حياتها أكثر من نصف ساعة.

داعبت شعر خالد، وأنا أقول:

– هيا شد حيلك؛ حتى تلحق بي العام القادم في الجامعة.

صاحت والدتي، وهي ما زالت منهمكة فيما تفعل:

– لا تتعب نفسك يا حسام.. خالد يصر على تعلم حرفة يدوية.

نقلت نظراتي بينهما، وقلت في حيرة:

– ولم؟

أجاب خالد:

– الشهادات لم تعد تجدي نفعًا.. البلد في طريقها للانحدار، والفقر يتزايد.. سأتعلم حرفة مطلوبة، أسافر بعدها إلى إحدى دول الخليج.

– وما الحرفة التي ستتعلمها؟

– لم أقرر بعد.. لكنني أفكر في صيانة وتركيب المكيفات.

– تبريد وتكييف تقصد؟

– لا يهم المسمى.. الأهم أنها حرفة تدر دخلًا ممتازًا.

– هذا في أيام الصيف فقط.. ماذا ستفعل في الشتاء؟

ضحك بقوة، وكأنني قلت نكتة، ثم قال:

– التكييف الآن يعمل صيفا وشتاء.. في الشتاء يخرج الهواء الساخن، وفي الصيف البارد.

سألته بحيرة:

– ولكن الطب والهندسة يدرون دخلا طيبًا كذلك.

– الجميع يتجه إليهما.. وبعد أن يصير نصف سكان مصر أطباء ومهندسين، لن يجدوا مكانًا للعمل.

– وماذا عن دراسة التجارة؟

– نفس الشيء.. ثم إنني لن أضيع أربع سنوات من عمري في الدراسة، ومثلها في البحث عن عمل.. سأختصر الطريق من الآن.

غلبني الصمت الحائر، ولم أجد ما أقول.. لقد كان على حق في كل حرف.

* * *

في المساء جلست أتنسم هواء الليل داخل الشرفة، مع كوب من الشاي الساخن بالنعناع.. شيء جميل ومختلف أن يكون معك أسرتك، بدلًا من الجلوس بمفردك، ومحادثة نفسك، أو إجراء حوار مع الجدران. حتى الشعور بالخوف تلاشى تدريجيًا، وحل مكانه الأمان والهدوء، لا أعتقد أن



شبحًا كان أو إنسانًا قادر على تعكير صفو راحتي النفسية.. لكنني كنت مخطئا.

بدأ كل شيء أثناء الليل عندما أوينا أنا وأخي للنوم في حجرة الصالون، بعد أن تركت غرفة النوم لأمي وشقيقتي الصغرى هند. كنت قد استغرقت في نوم عميق عندما استيقظت على رجفة عاتية، صادرة من جسد أخي.. نظرت إليه لأجد على الضوء الشحيح القادم من خارج الشرفة، وجهه المتجمد من الرعب، وعينيه المتسعتين من شدة الهلع.

سألته وقد تبخر النوم من عينيَّ:

– ماذا هنالك؟

لم أتلقَّ منه أية إجابة؛ لذلك تابعت نظراته حتى رأيت ما أثار خوفه.. كان هناك ظل مخيف يجوب الحائط، كأنه انعكاس لشخص ما يقطع الطرقة الخارجية مشيًا، ولولا تلك الأشياء الشبيهة بالخراطيم التي تتراقص حول جسده لظننته والدتي تفعل شيء ما.

بحذر شديد تسحبت حتى ضغطت على زر إضاءة النور، لأفاجأ بهروب شيء ما، جعل الأثاث يتحرك بعنف، كمن ضربه زلزال غامض.. ولم يتوقف الأمر



عند ذلك، لقد ظهر ذلك الشيء الذي أرق ليلي منذ أن أتيت هنا.

طائر الهامة عاد من جديد.

ذلك الأحمق المدعو أدهم قد أخطأ، وبدلًا من أن يطهر المنزل، قام بفتح أبواب الجحيم على مصراعيها!

* * *

في نفس الوقت تقريبًا جلس أدهم إلى مكتبه يقلب في بعض الكتب الخاصة بالجان.. هناك شيء ظل يشغل عقله، ويريد معرفة إجابته.. شيء غامض حدث في منزلي، ولا يجد له تفسيرًا.. أشبه بالشعور بكتيبة من الجن تراقب المنزل، ولم يرغب في نقل إحساسه هذا إليّ حتى يتأكد.. استغرق التفكير على كل حواسه فلم يشعر بمقبض باب المكتب، وهو يتحرك ببطء، ولا بحركة الباب الذي أخذ ينزلق مفتوحًا إلى الداخل، وفي فراغ الباب كان يقف شيء أشبه بالظل، سرعان ما توارى عندما رفع أدهم عينيه يتأمل الباب المفتوح..

ظن لوهلة أنه من تركه مفتوحًا، ثم تنبه إلى عادته الدائمة في عدم ترك أي باب مفتوح؛ كتأمين إضافي ضد أي عبث شيطاني، وهنا وقف شعره من الرعب..



التأمين الأساسي كان طلسم منع، أشبه بجدار من الصلب يقف عائقًا أمام أي جان مهما بلغت رتبته.. لكن الباب المفتوح ينبئه أن نظام الآمان قد تم اختراقه، وهذا يعني أن من بالخارج ليس مجرد جن عادي.. ليس كذلك أبدا.

ظلت عينا أدهم تراقبان الباب في خوف.. بينما أصابعه تحاول فتح الدرج بطريقة حذرة.. لا يريد لمن بالخارج أن يشعر بما يفعله؛ فالدرج مليء بعدد من الخواتم المطلسمة.. بعضها يمكّنه من فتح العين الثالثة في عقله، وجعله قادرًا على رؤية الجان.. كما إن هناك خاتم حماية، وخاتمًا آخر يمنحه القدرة على قهر أي مارد غاضب.

قبضت أصابعه على أحدها، فخفض عينيه سريعًا كي يرى لونه، عندما تلقى تلك اللطمة العنيفة على صدره.. لطمة جعلت جسده يطير إلى الخلف، ويرتطم بالحائط بمنتهى العنف.

رفع عينيه إلى ذلك الشيء ورآه مجسدًا أمامه، دون الحاجة إلى أي خاتم.. كان أكثر المخلوقات الذي رآها في حياته هولا وفزعًا.. ولم يكن كأي شيء يعرفه.. لقد أظهر الشيء نفسه.. ثم تلاشى بلا أثر.

كان مجرد إنذار.

* * *

استيقظت ميار قبيل الفجر، وشعور شديد بالعطش يحرق جوفها.. أزاحت الغطاء، وانزلقت إلى الأرض الباردة تبحث عن خفها، الذي منحها شعوراً لذيذاً بالدفء.. وبجسد مترنح كالزومبي غادرت حجرتها متجهة إلى المطبخ الذي يقبع في الطابق السفلي.. مرت على والدها الذي جلس يشاهد التلفاز في الصالة، وألقت عليه السلام، ثم عرجت على المطبخ لتروي ظمأها.. لكنها تسمرت من الرعب عندما وجدت والدها يعد بعض الشاي على الموقد.. من الذي يجلس بالصالة إذاً؟

وهنا لم تملك إلا الصراخ.. نظر والدها بذعر، وهو يهتف:

– ماذا حدث؟

أخبرته بحروف مبعثرة عن رؤيتها له منذ قليل قابعا بالصالة.. ربت على رأسها وهو يقول:

– لابد أنكِ كنتِ تتخيلين.

جذبها من يدها حتى موضع الصالة، وهو يردف:

– أرأيتِ.. لا أحد هناك.

ظلت ترتجف، وهي ترى ذلك الظل الذي ينسحب من فوق الحائط، إلى أسفل المقعد، ولم تدرِ ماذا تفعل غير الاختباء في صدر أبيها.. فمهما قالت لن يصدقها.

* * *

أغلقت الشرفة في عنف أمام ذلك الطائر الجهنمي، وجلست على طرف الفراش مرعوبًا، لا أعرف ماذا أفعل.. فعلى ما يبدو هنالك غزو شيطاني غير مفهوم يحدث لشقتي الآن.

أول شيء جال بعقلي هو أن أهاتف ميار.. لكن الوقت لا يسمح بذلك.. أدهم إذن هو من يستطيع معاونتي.. أخرجت هاتفي من أسفل الوسادة، وشرعت في الاتصال فورا.. جرس طويل ولا رد.. ربما نائم..

لم أكن أعرف طبعًا أنه في مواجهة مخيفة الآن.. لذلك تكومت مرة أخرى فوق الفراش، وبجانبي شقيقي المذعور.. حاولت طمأنته:

– لا داعي للخوف الآن.. لقد ذهبوا.

لكن على ما يبدو زادته كلماتي رعبًا.. لقد ظل يردد كالأبله:



– ذهبوا؟! من هم الذين ذهبوا؟! ماذا يحدث؟

ظللت حائرا، ولم أجد أية إجابة لسؤاله.

في الصباح ساعدت والدتي على حزم أمتعتها، لتعود إلى بلدتنا مجدداً.. لقد كان خوفي عليها وعلى أشقائي عاتيًا.. ولم أكذب عليها كما يحدث دائمًا في روايات وأفلام الرعب، بل أخبرتها بكل شيء، وقلت لها أن المنزل مسكون، وأخشى أن يحدث لهم شيء خطير من جراء هذا.

صدقتني والدتي لأنها لم تتعود مني الكذب، ولأنها شعرت كذلك أن ثمة شيئًا غير مريح في هذه الشقة، وغادرت على وعد مني أن يعود كل شيء كما كان مجدداً، بعد التخلص مما في داخل الشقة، أو تركها والسكن في أخرى بلا أشباح.

عرفت بعد عدة ساعات أن شيئًا ما أخاف ميار داخل فيلتها، لم تفصح عن ماهيته، ولم تحكِ أي تفاصيل، إلا بعد اجتماعنا معًا نحن الثلاثة ليلًا.. لكنني كنت في عجالة، وأرغب في انتهاء كل شيء سريعًا، ولا طاقة لي في أي اجتماعات أو مناقشات لن تفيدني في أي شيء، إلا بالمزيد من الرعب والفزع.

لكن هذا لم يمنع حيرتي تجاه الموضوع.

الشبح يسكن شقتي أنا، فما دخل ميار في هذه؟

* * *

أجابني أدهم بقلق:

– هذا ما يزيد حيرتي، خاصة بعد ما حدث معي.

سألته في دهشة:

– هل ظهر لك شبح أنت أيضا؟

– لا.. شيء آخر.. وكأنه مبعوث لشخص يرغب في إقصائي عن مساعدتك.

– شخص؟! ساحر مثلًا؟

– صدقني لا أعرف.. كل شيء يحيط بهذا الموضوع يثير حيرتي بشدة.

صمت لحظات ثم قال:

– لذلك لا بد من معرفة كل شيء بأقصى سرعة.. كي نبعد الخطر عن أنفسنا، وعن أسرتنا وكل من نحب.



– أنا معك ولكن كيف؟ لقد قمت سابقا بتطهير الشقة.

– لأنني كنت أظن أن المسألة مجرد منزل مسكون.. الآن علينا اتخاذ طريقة أخرى.

– هيَّا بنا إذن.

* * *

٨– مزيد من الرعب..

عند صعودنا في المساء، لاحظت شيئًا مقلقًا، لا أعلم هل هي صدفة أم ماذا.. لكني أدركت أن ما أشاهده الآن ليس طبيعيًا بأي حال من الأحوال.. لقد وجدت كل سكان البناية، يقفون أمام أبواب منازلهم في صمت، وأعينهم مثبتة علينا في غضب عارم.

أمسك أدهم بذراعي، وهو يهتف في أذني:

– لا تحادثهم أو تحتك بهم.

راقبت سحنتهم المتموجة، وأعينهم التي تتسع في شكل دوامة سوداء رهيبة، ثم سألته وأنا أرتجف بشدة:



– ما الذي يحدث؟

أحاط كتفي بذراعه، وقال بلهجة منذرة:

– لا تقدم على أي شيء قد يثير حفيظتهم.

صمت برهة ثم استطرد:

– إنهم من الجن.

* * *

ردد أدهم بعض الكلمات الغامضة، التي تشبه الأحجية والطلاسم، وظل يحميني بذراعه، وهو يهمس في أذني:

– الأمر أخطر مما نتصور.

قلت ودقات قلبي تتعالى من شدة الهلع:

– دعنا نذهب من هنا.. الشقة ليست ملكي بطبيعة الحال.. أنا فقط مجرد مستأجر فقير.. لندعها لهم يفعلون بها ما يشاؤون، أو ليذهبوا إلى الجحيم لو أرادوا.

جذبني إلى الأعلى قائلا:

– الأمر سيان.. لقد قطعنا نصف الطوابق، ثم من قال إن الخطر في الشقة فقط، ألم ترَ هيئة زملائك وهي تتبدل؟

قلت بخفوت:

– بلى.. لكنني لا أفهم ما الذي تصبو إليه.. لا أعتقد أنني لو تركت البناية سيصيبني الخطر.

واصل تلاوة تعاويذه، ونحن نعبر بجوارهم، ثم قال:

– بل سيطاردك خطر أكبر بكثير.. هذا الذي تراه لا يعني إلا شيئًا واحدًا.. أن أحد ملوك الجن أرسل إلينا جنوده لمنعنا، وهم لن يتخلوا عن مهمتهم ببساطة، حتى لو اتبعوك إلى قلب الجحيم.

أخيرًا وصلنا إلى الشقة، بعد أن كدت أموت من شدة الرعب.. دلفنا بسرعة خارقة، ثم أوصدت الباب خلفي بإحكام.

تنفست الصعداء، وسألته مستفهمًا:

– كلامك كله غير مفهوم بالنسبة لي.. يا ليتك توضح أكثر.

جلس على المقعد الخشبي الذي يتوسط الصالة، وقال شارحا الأمر:



– هناك سر يخفيه الجن هنا، وهذا السر خطير لدرجة أنهم يتلصصون عليك من خلال سكان البناية، حتى إنهم استغلوا حواسهم وأجسادهم دون علم منهم، وهذه أول مرة يحدث فيها هذا على وجه الأرض.. بل إنهم خرقوا قانونهم السرمدي، وأرسلوا خلفك جواسيسهم إلى الجامعة.

اقشعر جسدي لما يقول ولم أعلق، بينما أخذ هو يواصل في اهتمام:

– لا أعتقد أن الأمر مجرد شبح أو ما شابه ذلك، لقد شككت في هذا عند وصفك لذلك الطائر العجيب.. المرعب في الأمر أنهم يظنون أنك قد عرفت السر، وسيسعون للخلاص منك بأي ثمن.

انتفضت فزعا وأنا أصرخ:

– لماذا؟ ماذا فعلت لهم؟

ضاقت عيناه في صرامة، وهو يقول:

– هذا ما سنعرفه الآن.

سألته مجددا، وأنا ما زلت لم أفهم بعض النقاط:

– لماذا لم يهاجمونا أثناء صعودنا إلى هنا؟ ولماذا لم يتلبسون جسدي مثلًا، أو يغلقون مدخل البناية؟

قال بسام:

– أخبرتك أنهم يتجسسون عليك من خلال حواس جيرانك.. ألم تفهم بعد؟ بالضبط كأنك تنظر من خلال عين سحرية، هل تستطيع وقتها عبور الباب أو تحريكه؟

قلت وقد بدأت أفهم:

– هل تقصد أنهم لا يستطيعون تحريك أجسادهم؟

هز رأسه موافقا، فارتعدت وأنا أهتف:

– لكنني لم أسمع عن شيء كهذا من قبل.

كاد يشد شعره، وهو يصيح غاضبا:

– أخبرتك أنها تحدث لأول مرة في التاريخ.

سألته للمرة الألف:

– كيف خرجوا من بيوتهم إذن؟



لوح بكفيه في حيرة وقال:

– هذا ما لم أفهمه بعد.. لكن الحل بسيط.. يكفي إحداث ضجة ما، فيهرع السكان على أثرها إلى الخارج، ويحدث الأمر.

وقف يتمطى كهرة كسولة، وبدأ يفتح حقيبته، وهو يقول:

– والآن لنبدأ العمل.

* * *

–٩ قتيل ولكن..

قال وهو يخرج من حقيبته تلك المبخرة النحاسية، وعدداً من الشموع الكبيرة، وكتاباً قديماً له هيئة مقبضة:

– الأشباح يا صديقي لهم برزخهم الخاص، ولا يتعلقون بعالمنا إلا إذا كانت أمامهم مهمة لم تنجز بعد، أو سعيا وراء الثأر إذا كان ذلك الطائر الذي رأيته هو الهامة فعلًا، ولكن لن يحدث أي شيء من هذا إلا إذا كان لهم بقايا مادية في قلب المكان، أثر ما كقطعة من الملابس، أو حلية تربطهم بالمكان.. وأعتقد في حالتنا هذه أن هناك

جثة كاملة مدفونة هنا، ربما تحت بلاط حجرتك بالذات، وهذه الأشياء التي أقوم بتحضيرها للكشف عنها، وإظهار مكانها بدقة.

سألته بحرج:

– هل أعد لك بعض الشاي؟

ابتسم وهو يفتح صفحات الكتاب المتجعدة، وقال:

– ربما بعد الانتهاء من كل شيء، وقتها سأدعك تدعوني على العشاء.. لكنني يجب الانتهاء بسرعة قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه.

– وما الذي تعتقد أنه سيحدث؟

– لا أعرف هل تعاني الزهايمر أم ماذا! هل نسيت حشد الجن المتربص بالمكان؟

– بالطبع أذكر.. ألا ترى ارتعاشة جسدي من فرط الرعب؟ ولكن ما دخل شبح قتيل بعالم الجن.

– لن نعرف حتى نكتشف الجثة.. ربما كان ساحرا روض أحد المردة لينفذ أوامره.

أشعل البخور ذا الرائحة الطيبة، وهو يشرح:



– البخور تراه كثيرًا في أفلام الدجل والشعوذة، وبعيداً عن ذلك العالم الخيالي، أستطيع أن أؤكد لك أنه أداة بالغة الأهمية في اختراق حجب العالم الآخر و...

قاطعته قائلا:

– أعرف هذا، فلي باع قديم في مطالعة كتب السحر وطرد الجن.. طابع الشخص مائي أو هوائي أو ناري أو ترابي.. هناك خدم موكلون بأيام الأسبوع، وكل خادم له منزلة قمرية مناسبة، من الهلال إلى المحاق، وبخور خاص به تختلف خواصه باختلاف الخادم.. إذا كان خيرًا بخوره طيب مثل العود والصندل وما شبه ذلك، والأشرار منهم لهم ريح كريهة مثل الصبر والمر و—

قاطعني هو هذه المرة، وهو يضحك:

– مهلًا يا صديقي.. هذه ليست حصة تسميع درس المس.. أشهد أنك بالغ الثقافة في تلك المسألة، ولكن ما نفعله هنا لا علاقة به بخدام الجان.. إنه شبح يا صديقي.. شبح، وأموره تختلف كليّا عما تقول.. ولكن أخبرني كيف عرفت كل هذا؟

أجبته في شرود:

– كان لي صديق قد أصابه المس في صغري.. وقتها شعرت بفضول شديد إلى هذا العالم الغيبي.

طرقع بأصبعه قائلا:

– هذا يفسر كل شيء.. كنت تسألني لماذا لم يحاولوا تلبسك؟ هذه هي الإجابة يا عزيزي.. أنت محصن ضدهم.

سألته بحيرة:

– محصن؟ وكيف هذا؟

ربت على كتفي قائلا:

– الممسوس ومن يحضر عملية الطرد، يحصنان مستقبلًا ضد أي مس أو إيعاز شيطاني، ولا بد أن قراءاتك هذه زادت من قواك الروحانية إلى حد ما، وإلا كيف تفسر رؤيتك لهيئة جيرانك المتبدلة.. أنا أراهم بواسطة هذا الخاتم.

و قرب من وجهي ذلك الخاتم الذي يزين خنصره.. خاتمًا فضيًّا له فص أحمر ممتلئ بالمنمنمات، وأشياء أخرى تبدو شيطانية.

سألته مبهور الأنفاس:



– هل تعني أن هذا الخاتم قادر على جعلك ترى الجانب الآخر؟

أجاب وهو يواصل ما يفعل:

– نعم.. شيء من هذا القبيل.

* * *

أخذ دخان البخور يتصاعد إلى فراغ الغرفة، كغيمة شتوية، لا ينقصها إلا بعض البرق والرعد.. وفي صوت جهوري صارم، ردد أدهم تلك الكلمات المبهمة.. كلمات غامضة شيطانية الطابع على غرار (قيدروش من يليد يلد هوة كلشعليا طارش)، ثم قال لي موضحا بعد أن رأى البلاهة على وجهي:

– إنه حجاب الأقفال السبعة، حتى لا يتعرض لنا جيش الجن هذا بأذى.

فجأة، وبطريقة تتحدى كل القوانين الفيزيائية، تحرك الدخان إلى خزانة الملابس، آخذاً في التسرب إلى الداخل عبر عقب الباب، وكأنه يملك إرادة حرة مستقلة.

هتف أدهم منتصرا:

– إنه هنا.

فتح خزانة الملابس بلهفة، وأخذ ينبش قاعدتها في اهتمام شديد، ثم بدأ في محاولة تحريك الخشب الذي يغطيها، وعندما لم يفلح عاد إلى حقيبته التي تشبه جراب الحاوي، وأخرج منها مفك براغٍ، وبهمة شديدة عاد مجدداً إلى داخل خزانة الملابس، وبدأ يفك المسامير التي تربط أرضيتها.

شعرت وقتها بالدهشة الشديدة، أمعقول أن جثة رجل بالغ مخفية في مثل هذا المكان الضيق؟

صاح بحماس وهو يخرج كتابًا متوغلًا في القدم من قلب كتل الأخشاب:

– ألم أقل لك إنه ساحرٌ!

أخذت الكتاب منه، وقرأت عنوانه العجيب «الزايرجة».. سألته مستفهماً عن معناه، فقال في سرور لعثوره عليه:

– نوع من أنواع التنجيم.. يتم فيها طرح سؤال عن أحداث مستقبلية، ثم يتم بعد ذلك تحويل حروف السؤال إلى أرقام.. وبعد عملية حسابية معقدة، سيحصل السائل على جواب سؤاله.. يقال أنها مأخوذة أصلًا من طريقة حساب الجُمل، التي كان يستعملها العرب أيام الجاهلية.



قلت مندهشا:

– بهذه البساطة؟!

هز رأسه نافيا وقال:

– لا.. بل هي طريقة شاقة بالغة التعقيد، ولا يجيدها إلا قلة نادرة من السحرة، وهذا هو الغريب في الأمر.

أثناء تقليبي لصفحات الكتاب، سقطت فجأة ورقة بيضاء تتنافى هيئتها الحديثة مع قدم الصفحات المجعدة.. تناولتها من على الأرض، وقلبت فيها حائرًا.. كان بها عدة رسومات كروكية تظهر الشيطان ذاته، ومخطوطة عجيبة لا أستطيع أن أتبين منها شيئا مفهومًا.. ما هذه اللغة بالضبط؟

قال أدهم وهو يتفحص كتاب آخر:

– هذا كتاب البلهان.

– بلهان؟!

– نعم.. من أغرب الكتب التي ستقابلها في حياتك؛ فهو شديد الندرة لدرجة أن هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها، كتاب مليء بالرسوم الطلسمية التي شاعت مع علوم السحر والعلوم الغيبية،



جمعه عبد الحسن الأصفهاني في القرن الرابع عشر.. تم تأليف وإعداد الكتاب في بغداد أثناء حكم السلطان أحمد الجلائري.. مواد الكتاب كتبها عالم الفلك أبو معشر البلخي، والرسومات من عمل عبد الحسن الأصفهاني.

تناولت هذا الكتاب العجيب من بين يديه، وأخذت أقلب فيه لأشاهد – ويا للعجب – أغرب أنواع الرسوم على الإطلاق.. رسوم وتصويرات مدهشة بالألوان لملوك الجن.. طلاسم ورموز مخيفة وغير مفهومة..تستطيع أن ترى رسومات لإبليس، وملك الجن الأسود، والملك الأحمر، وشمهورش نفسه.. هناك صور تمثل الجن وهم يختطفون البشر، أو يسببون لهم الكوابيس أثناء النوم.

أفقت من استغراقي في تأمل الكتاب على شيئين..

الطائر الرهيب الذي ظهر بغتة، وجاء يصيح بصوته المرعب، مطلقاً صرخة وراء صرخة، تكاد تصيبنا بالجنون.. وهذه التشققات العجيبة التي ظهرت فجأة في قلب الجدار الشرقي.

هب أدهم من رقدته هاتفا:

– الجثة.. لقد نسيناها.

قلت برعب:

– وهل هذا وقته؟

فأجاب بسرعة:

– بل وقته وأكثر.. شبح القتيل قادر على مساعدتنا، وإمدادنا بالمعلومات التي تنقصنا.. ولا تنسَ كذلك أن الهامة ستظل تطاردك حتى تخلصه من عذابه، أو تنتقم له.

راقبت شروخ الجدار التي تمددت كأفرع شجرة ضخمة، وقلت:

– ما الذي يحدث؟

– إنها الجثة تحاول الظهور.

– ولماذا لم تفعل هذا من قبل؟

– لا أعرف.. اسألها بعد أن نخرجها.

تناول معولًا صغيرًا من حقيبته، وضرب به الجدار عدة ضربات خفيفة، وبعد أن أزاح عدة كتل من القرميد، شهق في فزع شديد، وتراجع إلى الخلف حتى سقط على ظهره أرضا.

ألن تنتهي ليلة الرعب هذه؟ ماذا هنالك هذه المرة؟

أشاح أدهم بوجهه، وهو يكاد أن يتقيأ من شدة الرعب أو التقزز.. تفحصت الجدار المثقوب جيداً، لكنني لم أرَ أي شيء، لا جثة متعفنة، أو عظام نخرة، أو حتى قطع من الملابس بالية.. ما الذي أثار رعب هذا الأحمق؟

خلع خاتمه من بين إصبعه، ودفعه إليّ قائلا:

– انظر جيداً؛ لتعرف حجم الكارثة التي وضعتنا جميعًا فيها.

تناولت الخاتم منه، وأحطت به بنصري، وهنا حدث شيء عجيب.. تموج الحائط، وارتسمت عليه خيوط جهنمية لا شبيه لها، وفي قلب الفجوة لمحت شيئا مريعًا بكل المقاييس.. شهقت من فرط الرعب، وقلت:

– ولكن.. ولكن هذا الشيء ليس بشريّا.

أومأ برأسه موافقا، وقال بحسرة:

– نعم.. فذلك الشبح الذي عانيت منه كثيرًا، وأقلق راحتك لم يكن صاحبه إنسيّا.. صاحبه هو من تراه

الآن.

شعرت بجدران الحجرة تدور من حولي، وأن العالم كله يكاد يتداعى فوق رأسي.. كيف لا وقد عرفت الآن من هو صاحب هذه الجثة المفزعة.. أعتقد أنني أول شخص في التاريخ يا صلاح، يرى شبحًا لجني مقتول، أو حتى يعرف أن هناك شيئًا كهذا.

* * *

جلست على طرف الفراش، وأنا لا أقوى على التفوه بحرف، فالمفاجأة أكبر مما قد تتحمله أعصابي.. لا أستطيع أن أتخيل لحظة في حياتي أن الجن يُقتلون، أو أن لهم أشباحًا.. الجن أنفسهم قد يكونون أحد تفسيرات ظواهر الأشباح التي حيرت العلماء.. أي عبث هذا؟

أم أن هذه حالة استثنائية؟

سألته بذهول:

– هل يموت الجن ويتم قتله؟

أجابني وهو ينظر لي تلك النظرة التي تدل على ضيقه الشديد:

– كل المخلوقات تموت، إلا اللّه سبحانه وتعالى.



ظننته سيكتفي بهذه الإجابة، لكنه واصل قائلًا:

– هناك حديث شريف يقول: «أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون»، الجن يموت مثل الإنسان بالضبط.. منهم من يموت بشهب حارقة، ومنهم من يموت بالقتل والمرض وغير ذلك من أسباب الموت.

تذكرت الورقة التي عثرت عليها.. ربما قد نجد بها ما يساعدنا.

ناولته إياها وأنا أقول:

– ما هذه؟

أمسكها بعدم اكتراث، وما إن شاهد ما بها، حتى كادت عيناه تقفزان خارج محجريهما، وانقلبت سحنته إلى الرعب الشديد.. سألني وهو يكاد يسقط ميتا:

– من أين جئت بهذه؟

أخبرته أنها كانت مخبأة في قلب صفحات الكتاب المرعب هذا، فقال بصوت مرتعش:

– لقد فهمت الآن كل شيء.. كنت غبيّا عندما قررت المجيء إلى هنا.



لوح بالرسومات في وجهي وواصل حديثه العجيب:

– هل تعرف ما هذا؟ هذا طلسم مظلم يتسبب في مصرع كل من يملكه.. هل تعرف السبب؟

حاولت تهدئته قائلا:

– أيّا كان ما يفعله.. الموقف لا يحتاج منك كل هذه الثورة.. اهدأ قبل أن تصاب بسكتة قلبية.

جلس أرضا وهو يكاد يبكي وقال:

– أنت لا تفهم شيئًا.. نحن لن نخرج من هنا أحياء قط.. وليت الأمر اقتصر على هذا، بل سيمتد الأمر إلى أسرتينا.. سيذوقون من الأهوال ألوانًا، قبل أن يلحقوا بنا إلى الجحيم.

شعرت بالرعب مما يقول.. أمي وأشقائي ما ذنبهم، وما الذي قد يتسبب في كل هذا؟

صمت قليلا، وهو يزدرد لعابه في صعوبة ثم واصل:

– هذا الطلسم مخصص لاصطياد ملك الجان ذاته وسجنه.. وهو لن يترك من عرف سره حيّا مهما كلفه الأمر، وسيظل يطاردنا محيلًا الأرض إلى جحيم مستعر، هذا إذا نجحنا في اجتياز عتبة الباب أصلًا..
أفهمت الكارثة التي نحن فيها الآن؟



* * *

١٠- وانكشف السر..

راقبته وهو يرسم تلك الدوائر المتداخلة على الأرضة.. دائرة عملاقة داخلها دائرة أصغر داخلها دائرة أصغر وأصغر وأصغر، هكذا دواليك مكونًا سبع دوائر متكاملة، يحيطها من الخارج مربع مستقيم الأركان، وفي الفراغ الذي بينهم أخذ يخط شيئا ما.

اسمها دوائر الحوطة كما أخبرني، ومهمتها هي منع أي مخلوق شيطاني من عبور خطوطها.. أي نحن بأمان داخلها مؤقتا حتى نجد حلًا آخر لمغادرة المنزل نهائيًا.

قال وهو منهمك فيما يفعل:

- الظاهر لنا حتى الآن أن هناك ساحرًا أو دجالًا، استغل أحد الجان عن طريق سحر الزايرجة، وظل يمده بالمعلومات التي يحتاجها، حتى جاء الوقت الذي كشف فيه سر ذلك الطلسم الملعون.. وبما أن المكان ملغم بالجان، فهذا يؤكد أن أحد ملوكهم قد عرف، وقرر الانتقام من الجني.. أمر بقتله ودفنه في عالم البشر حتى تتعذب روحه إلى يوم الدين، وما الهامة إلا محاولة من المسكين أن يجد من ينقذه.. الجن المحيط بنا موكل بحفظ

السر حتى لا يخرج إلى العامة، والتصدي بكل قواه لمن يحاول فعل هذا منهم.

قلت بسأم من كثرة الأشياء غير المعللة:

– ملك الجن.. تظل تكرر هذه الجملة دون أن تفسر معناها.. أليس ملك الجن هو إبليس؟

– بالطبع لا.. إبليس أبو الشياطين.. أما الجن فهم فصائل، فهناك الجن الأحمر والأصفر والأسود، ولكل فصيل منهم ملك.

قطع حديثنا صوت خبطات ملحة على باب المنزل.. وأصوات عديدة تصرخ بكلمات ليس لها معنى.

نظرت لأدهم برعب وقلت:

– ما الذي يحدث بالضبط؟ ألم تقل إن الجن لا يستطيع تحريكهم؟

– ربما...

صمت لحظات وهو يفكر ثم أكمل:

– ربما أوهموا السكان بشيء ما يحدث هنا.. حريق مثلًا.. الجن يستطيع طمس العقل، وجعله يتخيل أشياء لا وجود لها.



سألته والرعب يكاد يفقدني وعيي:

– هل يعني هذا أننا سنظل محاصرين هنا حتى الموت؟

– لا.. دوائر الحوطة ستحمينا.. و...

تلفت حوله بحثا عن مخرج، وما إن لمح الشرفة حتى قال:

– نستطيع المغادرة من هنا.

* * *

لا داعي يا صلاح أن أقص عليك كل شيء بالتفصيل الممل.. الخلاصة أننا بعد معاناة رهيبة، استطعنا الهبوط من الشرفة إلى أسفل، عبر ربط ملاءات السرير بعضها ببعض، مع الاستعانة بالشجرة القريبة من الشرفة، كما تشاهد في الأفلام الأجنبية، الغريب أنني لم أكن خائفًا بسبب السكان الذين يطاردوننا، أكثر من خوفي بسبب أدهم.. لقد كان مرعوبًا بشكل لا أستطيع وصفه، وهذا يعني أن من يطاردنا شيئًا لا قِبل له به؛ لذلك لم أتعجب ونحن نقفز إلى السيارة عندما قال:

– لا بد من اصطياد ملك الجن اليوم بأي طريقة مهما حدث؛ فحياة أسرتينا تتوقف على هذا.

مرة أخرى لا داعي لذكر وصف المزرعة ولا الطريق إليها؛ فأنت تعرف كل هذا الآن، كل ما أستطيع قوله إننا كنا نحتاج إلى مكان ناءٍ خالٍ من البشر، حتى نستطيع إتمام مهمتنا الجهنمية، والتي قد تبدو لك غريبة، وربما مستحيلة.. لكن هذا ما حدث فعلًا واللّه على ما أقول شهيد.

في الطريق اشترينا عدة ألواح من الزجاج، وبعض القضبان الحديدية والنحاسية، كي نقوم بصنع قفص زجاجي كبير، وما إن وصلنا إلى المزرعة حتى صعدنا إلى السطح، وبدأ أدهم في العمل بكل قواه.. قضيب هنا، ولوح هنا، حتى أتم القفص بمساعدتي البسيطة، ثم أخرج زجاجة تمتلئ بالدم لا أعلم من أين جاء به، وكيف لم يتجلط بعد، وراح يرسم الطلسم الملعون على الزجاج بدقة مدهشة، كخطاط بارع، وقرب منتصف الليل كنا قد انتهينا من عمل كل شيء.

لا ينقص الآن إلا استدعاء ملك الجن داخل هذا السجن الزجاجي وقتله.. مهمة سهلة كما ترى يا صديقي.

* * *



بصوت قوي، ونبرات حاول أدهم أن يجعلها سوية، راح يتلو الطلسم الذي لم أفهم منه شيئًا بطبيعة الحال، لكنه بعث قشعريرة مريعة في جسدي.

جلست على أقرب حجر أراقب ما يحدث، وأنا أتلو بعض الآيات القرآنية والأدعية بصوت منخفض، في انتظار إتمام العملية، غير منتبه لحيرة أدهم الشديدة، ولا قلقه الظاهر على وجهه، إلا عندما قال:

– هناك شيء ما خطأ.

سألته في حيرة:

– ماذا تقصد؟

أشار بيده إلى القفص، وهو يقول:

– العملية لم تتم بعد أن انتهيت من كل شيء.. لا بد أنني نسيت إحدى الخطوات، و—

قطع كلماته وهو يهتف في سخط:

– يا للغباء.. هناك حرف طُمس دون قصد.

ثم أمسك الفرشاة، ودخل إلى القفص ليعيد كتابة هذا الحرف، عندما حدث ما لم أكن أتخيله في أبشع



كوابيسي.

لقد انغلق الباب الزجاجي بقوة، ومن خلف أدهم أخذ يتكون شكل ضبابي مرعب.

المسكين.. لقد تم حبسه دون قصد مع ملك الجن ذاته.

* * *

لم أفكر كثيرًا.. حملت حجرًا ضخمًا وهممت بتحطيم الألواح الزجاجية؛ كي أفسد عمل الطلسم، وأنقذ حياة أدهم.. لكن أشار لي والدموع في عينيه ألا أفعل.. فهو ميت على أي حال والفرصة لن تتكرر.

وقفت أمام القفص مبهوتًا، وعقلي عاجز عن إتيان أي رد فعل.. هل أحطم القفص لأحرر ملك الجن، أم أترك كل شيء كما هو وأفقد صديقي؟

لم يطل تفكيري كثيرا؛ فملك الجن كانت له اليد العليا، ولن يستطيع أحد منعه.

هيئته كانت مرعبة لأقصى حد، وتشبه كثيرًا تلك الرسومات في كتاب البلهان، حتى إنني تساءلت عن الرسام، هل رآهم رؤى العين حقّا؟



نظراته كانت مخيفة، وكانت تعكس قوة شخصية ومغناطيسية طاغية، بالضبط كنظرات الأسد إلى فريسته، مع اختلاف الهيئة.

انتهى كل شيء في لحظة واحدة.. ضرب ملك الجن أدهم عدة مرات في جدران القفص، وسحق وجهه في الزجاج بقوة عاتية لا مثيل لها، حتى إنني اندهشت، كيف لم يتحطم الزجاج بعد، هل بسبب الطلسم؟

وهنا لم أملك من نفسي شيئًا، وسقطت فاقد الوعي تمامًا.

* * *

–إا نهاية كل شيء..

لابد أنك لاحظت تسارع الأحداث بشدة، واختصاري الشديد في سرد النهاية، تذكر أنني أكتبها الآن وأنت في الطريق إليّ.. معظم أحداث البداية كتبتها قبل فترة كما أخبرتك، وأزيد عليها الآن خاتمة الأمر.

كنت أشعر بتأنيب الضمير؛ فأنا من تسببت في مصرع العزيز أدهم، وربما سأتسبب في مصرع أسرتي، وإلحاق الخطر بعائلة ميار.. المصيبة أنني

وحدي تمامًا، ولا أجد من يساعدني بعد وفاة أدهم، الذي كان يعرف كل شيء، ويستطيع التصرف جيداً، وهنا لم أجد أمامي إلا حلين.. دفن الصندوق الزجاجي، أو إخفاءه في بدروم منزل المزرعة، حتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه.. من يدري ربما عاد أحدهم من أسرة عمي، وحرر ملك الجان بغبائه..

أما الحل الآخر هو البحث عن مخرج من هذا المأزق، لا بد لي من معرفة أية طريقة لقتل هذا الشيء، أو حتى ترويضه كي ينصاع لأمري.. لذلك تجدني اختفيت عن الأنظار طوال هذه السنوات، أبحث وأتعلم حتى صرت لا يشق لي غبار.. لقد عرفت الكثير عن عالم الجن، والمس وغيره، حتى إنني لا أبالغ لو قلت أن قواي تفوق قوة أدهم في هذا الصدد.

هنا يا صديقي لا بد أن تعرف سبب مهاتفتك.. لقد عدت بعد عدة سنوات، متوقعًا أن ملك الجان ما زال في الداخل يرمقني بنظراته المخيفة، لكنني لم أجده، لقد تحرر فجأة بطريقة مجهولة.. القفص مهشم وملقى بإهمال فوق سطح المكان.. هل أخرجه لص؟ هل هو خطأ من أحد أقاربي؟ هل أرسل لأحدهم كي يخرجه؟

أسئلة ليس لها إجابات عندي.



أول شيء فعلته هو ذلك الوشم الذي تعلمته، شيء أشبه بالختم على الجسد يمنع ملك الجان من أذيتي.. وفعلت نفس الشيء بأسرتي حتى يصبحوا في مأمن من بطشه.

وهنا بدأ الصراع بيني وبينه، صراع امتلأ بالرعب والفزع، أنهاه بتعهده لي أن ينهي حياتي اليوم بالذات.. لذلك استدعيتك يا صديقي، كي أنفذ خطتي.

ما لا تعلمه يا صلاح أنك محصن قليلًا ضد الجان.. ربما نسيت هذا، وربما نسيت سبب كرهك للأجواء الشتوية.. هل تتذكر ذلك الصديق الذي مسه الجن في طفولتي؟

لقد كان أنت.

* * *

أعلم أنك لا تتذكر، وأعلم أيضًا أنك لم تكن لتأتي اليوم، إلا بفعل تلك التعويذة التي ألقيتها على مسامعك دون أن تدري.. لقد كنت أحتاجك بشدة يا صديقي.. الخطة على الرغم من صعوبتها فهي البساطة ذاتها.. كنت سأدع ملك الجان يتلبس جسدي، كي تنهي أنت حياتنا معا برصاصات مسدسك.



نعم يا صلاح.. كنت سأدعك تقتلني كي أتخلص من عذابه إلى الأبد.. لكنك تأخرت قليلًا، ووقتها أدركت أنه يحاول منعك من الوصول.. هنا عرفت أنني وضعتك في قلب الخطر، وربما سأتسبب بغبائي المفرط في مصرعك أنت ومن تحب.

قل لي لو كنت مكاني ماذا كنت ستفعل؟!

بالضبط، كنت سأجد طريقة أخرى، وهذا ما كنت أخافه بشدة؛ لأن تلك الطريقة محفوفة بالمخاطر والرعب، وربما لن تصدقني عندما أخبرك بها.

الحل النهائي يا صلاح هو أن أذهب إلى عالمهم.

* * *

لقد وجدت طريقة لفتح بوابة بين عالمينا.. هناك يا صديقي ستتساوى قوتي معه، هذا بالإضافة إلى التعاويذ والطلاسم والأسلحة التي أستطيع أن أستخدمها هناك..

أعرف أن ما سأفعله قد يخيفك بشدة.. لكن لا حل أمامي غيره.

والآن يا صديقي أستطيع أن أقول لك الوداع، فالمهمة القادمة شاقة، وقد لا أتحملها كما أظن.



لو سمعت أصواتًا مخيفة، أو تغيرًا غريبًا في الأجواء، فاعلم أن الصراع قد بدأ، وادعُ اللّه سبحانه وتعالى أن ينصرني.

وداعا وللأبد هذه المرة.

حسام الراعي

* * *

هذا أنا صلاح أعود إليكم مجدداً.. عقلي مذبذب تائه لا أجد ما أقوله حقّا.

هل حدث بالفعل ما أخبرني به حسام؟ أم هي أحداث ملفقة من خيال مريض؟

على الرغم من غرابة بعض الأحداث، لكن كل شيء يؤكد أن ما حدث حقيقة لا مراء فيها.. خوفي من البرد، ونزولي بشكل غير متوقع.. التجسد البشع الذي حدث في سيارتي، والكلب الأحمر الذي كاد أن يبتلعني.. حتى الصندوق الزجاجي وجدته مهشماً بالفعل، قبل أن يبدأ الكرنفال الكوني في الحدوث.

لقد عانى حسام الكثير، وأعتقد أن الأوان قد حان كي يستريح؛ لكن بدلًا من ذلك ذهب إلى غير



رجعة.. ذهب إلى عالم مخيف مقبض لا نعلم عنه شيئا.

من يدري ربما عاد مجدداً، وحكى لي ما شاهده هناك، أو ربما تم تنصيبه ملكًا عليهم.. كل شيء جائز الحدوث كما تعلمون.

سأترك الآن كل شيء لأعود إلى حياتي النمطية مجدداً، ولن أنسى بالطبع شراء ما طلبته مني زوجتي العزيزة.. فأنا لست في حالة تسمح بمواجهة رعب الزوجات.

* * *



(٦)

الهواء بعد انتهاء المطر له ذلك المذاق المغسول، وكأنه خلق من جديد بلا شوائب أو ملوثات، والهدوء الذي يعقب العاصفة مريح جدًا، ينسي المرء ما واجهه طوال ساعات الليل من رعب وأجواء مخيفة مقلقة، ومهيجة للأعصاب. عاد العالم كما هو، لا جن أو شياطين من أي نوع، ولا وحوش أو كلاب جهنم. المزرعة لمن يراها الآن لا تختلف عن أي مزرعة أخرى بريئة الشكل، عدا بقع الماء التي تناثرت في أشكال سريالية فوق الطمي، وأوراق الشجر التي عادت إلى هيئتها الأولى النضرة الخضراء، بعد أن تم غسلها من الأتربة والعوالق.

حاذرت أثناء مغادرتي على ألا أخوض في الوحل، أو داخل المياه المتجمعة، وقد تشبثت يداي بمذكرات صديقي الذي تلاشى في غياهب المجهول. هناك نقاط عدة أريد أن أراجعها جيدًا، وهناك أشخاص وأماكن يجب عليّ زيارتهم. زميلة حسام التي تدعى ميار.. شقة العباسية والجدار.. محاولة إيجاد طريقة لاسترجاع حسام.. لكن ليس الآن على كل حال.. ما زلت في حاجة إلى إراحة أعصابي، وقضاء ما بقي لي من الإجازة.. أم يجب أن أنسى كل شيء؟ الأيام القادمة فقط هي من ستجيب عن كل هذه الأسئلة.



* * *

عانقتني زوجتي في شوق، وهي تقول:

– حمداً لله على سلامتك.

– سلمكِ الله من كل شر يا عزيزتي.

– هل انتهى كل شيء على خير؟

– نعم.

– احكِ لي إذن كل حرف مما حدث منذ خروجك، وحتى الآن.

– أنا متعب، وليست لي طاقة على بذل أي مجهود.

ثم ناولتها سجلات حسام وأنا أقول:

– ستجدين كل شيء مدونًا هنا.

التقطت الأوراق من يدي، وهي تقول في براءة:

– ماذا تريد أن تأكل على الغداء؟

رمقتها بنظرات متعجبة:



– أليس من الغريب أن تجمعي بين الاطمئنان عليّ والغداء؟

قالت باسمة:

– الأكل مفيد في كل الأحوال.

– اطبخي أي شيء.

تنهدت في حسرة، وهي تقول:

– وهل تظن أن سؤالي نوع من الدعابة مثلًا؟ أنا فعلًا حائرة ما بين بعض المكرونة وشرائح اللحم، أو أرز مع الخضار.

قلت مازحا:

– ما رأيكِ في مكرونة مع الخضار؟

تقلص وجهها في اشمئزاز:

– يع.. لقد عرفت ماذا سأطهو.

– ماذا؟

– بيتزا.



– ....

* * *

انتهت الإجازة على خير، وانخفضت البرودة، التي لم تعد تعني لي الكثير، بعد أن شفيت من دائها.. لقد كان حسام كما تعلمون بعد اللّه سبحانه وتعالى، خير معين بواسطة التعويذة التي ألقاها على مسامعي عبر الهاتف.. لقد عادت الأمور إلى مجراها الطبيعي، أو هذا ما ظننته.. لقد بدأت الأشياء فجأة في الحدوث، ولا أعرف لذلك سببًا.. حوادث غامضة مرعبة، وظواهر لا تفسير لها.. البداية كانت في تلك المكالمة الهاتفية الغامضة.. صوت لهاث وحشرجة لا معنى لهما، مع عدم وجود أية بيانات تدل على المتصل.. جاءت المكالمة الأولى على هاتفي المحمول أثناء وجودي في العمل.. مجرد صوت غامض يبعث في جسدي قشعريرة مخيفة.. حاولت في البداية تعقب المكالمة ولكني فشلت.. لا شيء يدل على المتصل نهائيّا، وشركة المحمول أكدت عدم وجود أي اتصال من أي نوع، ورجحت أن الخلل في هاتفي.

ولم تتأخر المكالمة الثانية كثيرًا.. لقد جاءت هذه المرة في مساء اليوم التالي، على هاتف المنزل.. صمت.. حشرجة.. لهاث.. دون ترتيب بالطبع.



في صباح اليوم الثالث لم تكن مكالمة واحدة، لقد ضجت مكاتب العمل بالكامل برنين عشرات الهواتف الأرضية.. رنين مزعج متصل يدل على أن الأمر خارق للعادة.. هذا اتصال شبح بالتأكيد، أو جن ما يرغب في إجراء محادثة مستحيلة.. أو.. اللعنة.. ربما هو حسام.

التقطت سماعة الهاتف وأنا أقول بصوت منخفض، حتى لا ألفت نظر أحد:

– حسام.. أهذا أنت؟

صوت حشرجة أعقبه صمت..

– حسام.. أجب بالله عليك.

صوت لهاث، ثم كلمة واحدة:

– درس.

كلمة باهتة ضائعة المعنى، مبتورة الأحرف.. ربما هي حرس.. أو جرس.. أو أي شيء آخر.. مستحيل التكهن بما يتفوه به.. إلا لو أعاد ما يقول بصوت واضح.. لكن المكالمة انتهت للأسف.. انتهت دون أن أفهم شيئًا.. أو أعرف من على الجانب الآخر.. أهو جن.. شبح.. شيطان مارق؟! لكن نظرًا للطريقة

الملحة المتكررة هذه.. سيعاود الاتصال من جديد.. هذا مؤكد.

جاء مساعدي النقيب عماد، وهو يلوح بكفه في دهشة قائلا:

– لقد جن جنون الهواتف كلها دفعة واحدة!

سألته وأنا أعرف الإجابة المسبقة:

– هل عرفت من المتصل؟ هل سمعت شيئا؟

أجاب بلا تردد:

– متصل؟! مستحيل أن يُحدث أي اتصال كل هذا الجنون.. لابد أنه خلل ما أصاب الأسلاك.

أومأت برأسي موافقا، وما زال عقلي يبحث عن أجوبة بلا توقف..

انهمكت بعد ذلك في العمل بكل حواسي، لن أذكر شيئًا لأن بعضه سري جدًا، سأذكر فقط تلك الحادثة الغريبة، التي جعلتني أتشكك في بعض الأشياء.. كان زوجًا متهمًا بمحاولة قتل زوجته.. اسمه سمير قاسم.. رجل عادي ترى مثله يسير في الطرقات، أو يبتاع بعض الخضر، أو يحشر نفسه داخل إحدى الحافلات.. ممتلئ قليلًا.. أصلع الرأس..



قليل الاعتناء بمظهره، حتى إن نصف قميصه كان يبرز من داخل السروال بعشوائية.

سألته بلا اهتمام حقيقي عن السبب الذي جعله يحاول قتل زوجته.. لم يجب على الفور، بل ظل يداعب أصابع يديه، وهو ينظر إلى أسفل خجلا، أو خوفًا.. لا أعلم بعد.. عدت أسأله مجدداً بنبرة أكثر صرامة:

– لماذا حاولت قتلها؟ هل تأخرت في تحضير الغداء؟ هل نسيت أن توقظك عصراً؟

رفع عينيه إلى مستوى أعلى، وهو يحاول النطق بصعوبة، ثم وجه نظراته إليّ، وهو يجيب بصوت ناعس:

– لأنها.. أعتقد..

ضربت المكتب بقبضتي، حتى كدت أسقط اللوحة الخشبية التي تحمل اسمي، وقلت في قوة:

– ماذا؟ هل خانتك؟

هز رأسه بقوة، وقال:

– لا.. لا.. مستحيل أن تفعل زوجتي شيئا كهذا.. إنها (بنت ناس ومتربية).



فهمت الآن ماهيته.. إنه لا يجد إجابة محددة.. عقله عاجز عن فعل هذا.. واضح جداً من صوته الناعس أنه يعاني حالة مرضية ما، تجعل جسده خاملًا، وعقله قاصراً.. ربما قصور في وظائف الكبد، أو مرض صدري يجعل الجسد في حاجة ملحة إلى الأكسجين.. أو هو مدمن حشيش.. لذلك سألته بصيغة أخرى هادئة:

– احكِ لي ماذا حدث منذ البداية.

تنهد وكأنه كان ينتظر هذا، وبدأ يحكي ببطء، إلى أن اندمج في السرد، وتسارعت كلماته، التي أصابتني بدهشة شديدة.

* * *



(٧)

قال سمير:

– لم أفلح كثيراً في مسألة التعليم؛ لذلك لا يندهش أحد عندما يعلم أنني تركت الدراسة، بعد حصولي على مؤهل ثانوي صناعي، وعملي بهيئة النقل العام.. عمل بسيط يتناسب مع إمكانياتي الذهنية، وبطبيعة الحال تزوجت ممن رأيتها تشبهني، وتتوافق معي.. كانت فتاة طيبة من أسرة بسيطة، تعرفت عليها عن طريق شقيقتي الكبرى.. هادئة الطباع وتجيد الطهي بدرجة ممتازة.. أحببتها وبدأت حياتنا الزوجية في الاستقرار، بعد أن أنجبت لي ولدين — أحمد ومحمد — هما قرة عيني، وسعادتي الدائمة.. عشر سنوات يا سيدي مرت علينا كالحلم، لا يعكر صفونا شيء.. حتى حدث ما كنت أخشاه؛ فالحياة كما علمني والدي لا تستقر أبداً على وتيرة واحدة، ولا بد من شيء يتعسك، وشيء يسعدك.. يوم حلو ويوم مر كما يقول المثل الشهير.

تنهد سمير، وقد كادت الدموع تتساقط من عينيه:

– لا أفهم حتى الآن ما الذي أصاب زوجتي، وما السبب في ذلك؟! هل هو الحسد، أم هو شيء



شيطاني؟

تنبهت أكثر على كلماته، وأخذ تركيزي يتزايد مع الوقت.. واصل قائلا:

– أثناء عودتي في أحد الأيام، وجدتها تتحدث بصوت هامس في التليفون.. لم يشغلني هذا كثيراً؛ فربما كانت تتكلم مع شقيقتها، وتنم كما تفعل باقي السيدات.. ما أقلقني حقّاً هو ما حدث عند استيقاظي من نوم القيلولة.. لقد وجدت التليفون موضوعاً بجواري فوق الكومودينو، ومن سماعته الخارجية تعالى صوت همسات مرعبة.. صوت مخيف أجش يبث كلمات أشبه بالتعاويذ السحرية، والذي يثير الهلع أكثر أن زوجتي فعلت ذلك عمداً، كأنها تحاول إرعابي لسبب غامض، أو عمل تعزيمة ما عبر خطوط الهاتف.. لا أنكرك القول أنني مع حالة رعبي المبررة، ظننت ببراءة أن في الأمر خدعة ما، أو مزحة ثقيلة من صنع زوجتي، بالاتفاق مع شقيقتها أو إحدى صديقاتها.. لكنها ليست من هذا النوع، فلماذا تفعل ذلك؟! هل لي بكوب ماء يا سيدي؟

ظننت أن سؤاله الأخير ضمن الأحداث التي يقصها؛ لذلك ظللت أرمقه بتركيز شديد، حتى أدركت أنه يطلب كوب ماء بالفعل.. فتحت ثلاجتي الصغيرة التي تجاور المكتب، وناولته زجاجة تجمعت القطرات

الباردة على سطحها، وعقلي يفكر في موضوع الهاتف هذا الذي وضعته زوجته بجواره، محاولًا الربط بين ما حدث من اتصالات مجهولة في الأيام الماضية، وبين التعويذة التي ألقاها حسام على مسامعي.. هل هناك علاقة ما؟

تجرع سمير نصف ما في الزجاجة تقريبا، قبل أن يواصل حديثه بصوت لاهث:

- أنا رجل بسيط يا سيدي.. بسيط لدرجة أنني لا أفهم الأشياء العادية.. فماذا عن الأشياء الغامضة والمرعبة هذه؟ ناديت على زوجتي بصوت مبحوح، وسألتها عن سبب فعلتها هذه.. جاءتني بخطوات متسللة كما تفعل القطط، ورمتني بنظرة غامضة.. غريبة.. بها شيء غير مريح.. شيء غامض لا أفهمه.. أضأت نور الغرفة حتى أرى بصورة جيدة، فوجدت — ويا للغرابة — أن حدقتَي عينيها ثابتة في اتساع شديد، لدرجة أن سواد بؤبؤ العين طغى على لون الحدقة العسلي.. قل لي يا سيدي كيف لا تتأثر الحدقة بالضوء كما يحدث مع الجميع، ولماذا لم يؤلمها هذا؟! أنا أعلم أن هناك نوعًا من (قطرات العين) قادرة على فعل هذا، لكنها تؤلم بشدة بسبب عدم التأقلم مع النور الخارجي. أليس هذا صحيح؟

أجبته دون تردد:

– بلى.. اللّه سبحانه وتعالى خلقها كي تتفاعل مع الضوء.. تتسع أو تضيق حسب شدة الإضاءة، وعدم الاستجابة يتسبب في تشوش الرؤية، وألم يفوق الوصف.

قال في لهفة، وكأنه غريق يتعلق بقشة:

– إذن أنا على حق، ولا أخرف؟!

– في هذه النقطة بالذات أنت لا تخرف.. إلا لو كنت واهما.

– لا يا سيدي.. لم أكن واهما؛ بسبب تصاعد الأحداث السريع.

صمت قليلا وهو يتأمل زجاجة المياه، ثم جرع جرعة إضافية، وواصل:

– في مثل تلك المواقف يتصرف الرجل وفقًا لطبيعته.. هناك من سيهوي على صدغها بقلم مؤلم، وهو يسألها بعصبية عن معنى كل هذا.. وهناك من سيُعمل عقله ويسألها بهدوء حتى يفهم.. وهناك من هم على شاكلتي، الذين لا يفهمون المرأة بشكل عام، ويُرجعون أي تصرف غريب إلى خلل ما في هرمونات الأنوثة.. لذلك تركت كل شيء إلى ما بعد كوب القهوة، الذي أتناوله



عادة في مثل هذا الوقت.. وبالطبع نسيت كل شيء أثناء متابعتي لإحدى مباريات الدوري العام، ومتابعة التحليل الفني الذي يعقبه.. وكلي حماسة في معرفة اللاعبين الجدد الذين سيقوم النادي بشرائهم.. وعندما جاء المساء تناولت عشائي، وتوجهت إلى الفراش كي أنام.. ستسألني عما فعلته زوجتي طوال تلك المدة، سأقول لك لا شيء.. تصرفت بشكل طبيعي جدًّا، ولم تقدم على أي تصرف يخالف طبيعتها، حتى حدث ما زاد شكوكي بعد منتصف الليل.

سألته وقد زاد فضولي:

– وما الذي حدث وقتذاك؟!

أجاب وقد اتسعت عيناه عن آخرهما:

– استيقظت على بكاء ابني الصغير محمد؛ فنهضت متوترًا أبحث عن زوجتي بجواري فلم أجدها.. ذهبت إلى غرفة الأطفال متوترًا، لأجد — ويا للغرابة — كلا الولدين نائمًا في فراشه.. إذن من يبكي يا ترى؟ لاحظت وقتها أن الصوت آتٍ من خارج الشرفة، ومنزلي — إن لم تكن تعلم يا سيدي — يقع في الطابق الأرضي، وشرفتي تواجه الحارة مباشرة، لكنها مغلقة دائمًا حتى لا تصبح شقتنا مجروحة.. فتحت شيش الشرفة بحذر، بحثًا عمن

تسبب في إيقاظي، وبكل أمانة لم أعتقد أن لزوجتي أي دخل بهذا، وظننت بحسن نية أنها ذهبت إلى الحمام مثلًا.. لكنني وجدتها تقف في الظلام على أرض الحارة الترابية، ولم تكن بمفردها، كان معها أربعة أشخاص لم أتبين إلا حدودهم الخارجية بسبب الظلام، وقد صنعوا دائرة صغيرة حول طفل يبكي.. ناديت عليها بصوت مرتجف، وأنا أسألها عما يحدث، وهنا التفت إليَّ الجميع بصورة مفزعة، وانغلق الشيش أمام وجهي بفعل قوة مجهولة، ووجدت جسدي يتراجع إلى الخلف، ويسقط أرضًا، والألم ينتشر على صدري.. هناك شيء ما ضربني بقوة خارقة.. شيء لم أستطع رؤيته، وببعض الاستنتاج عرفت أن سبب هذا هو نظراتهم.. كأنهم يملكون قوة خارقة كما نشاهد في الأفلام.. كيف ستتصرف في مثل هذا الموقف يا سيدي؟

نظرت إليه طويلا ولم أعلق، ويبدو أنه لم يكن ينتظر إجابة:

– الرعب هو كل ما شعرت به.. الرعب من أي يصيب ولديَّ أي مكروه، والخوف على زوجتي من أن تضيع للأبد.. تلفت حولي بحثًا عن أي شيء يساعدني، فوجدت عصا قديمة كنت أستعملها أثناء إصابة قدمي.. أمسكتها بقوة، وغادرت المنزل وأنا لا أعرف ماذا سأفعل.. كل ما يهم هو إنقاذ زوجتي مهما



حدث.. إنقاذها من ماذا؟ ليتني أعرف.. ما علينا.. خرجت من باب البناية إلى الحارة لأفاجأ بما لم يكن في الحسبان، لم يكن عددهم أربعة كما ظننت، كانوا يزيدون على الأربعين، وجميعهم يحدقون بي.. نظراتهم مرعبة تجمد الدم في العروق، وعيونهم مضيئة في قلب الظلام كعيون القطط، هنا لم أشعر بنفسي إلا وقد سقطت على الأرض مغشيّا عليّ.

سألته كي أحثه على التكملة:

– وماذا حدث بعد ذلك؟

قال في رعب:

– لا شيء.. استيقظت في اليوم التالي على فراشي، وكأن ما حدث مجرد حلم أو كابوس.

قلت له وأنا أهز رأسي:

– ربما كان حلمًا بالفعل.

أجاب بعنف:

– لا.. لقد وجدت بعض الأتربة العالقة بملابسي، ووجدت العصا ملقاة بإهمال تحت الفراش.. حتى

حدقتَي عينيها ما زالت متسعة.. صدقني لم يكن حلمًا.

- وماذا حدث بعدها؟

- لم تعد الحياة كما كانت.. وظل خوفي من أن يحدث شيء للأولاد يتفاقم.. فكرت في أن أطلقها، ولكنني لم أكن أفهم في القوانين التي سيترتب عليها هذا.. هل ستأخذ الأولاد، أم ستتركهم لي؟ وماذا عن الشقة؟ أسئلة كثيرة لم أملك إجابتها، أو الشجاعة اللازمة في سؤال محامٍ عنها.. ولكن هذا لم يمنعني من حماية الأولاد.. لذلك عندما جاء الليل نمت في فراشهم، بعد أن أغلقت الباب بإحكام شديد.. لم أكن أعرف نهاية الرعب الذي جعلتني زوجتي أعيشه، ولكنني قررت في الصباح أن أذهب بالأولاد إلى شقيقتي، وأن أبحث عمن يمد لي يد العون.. شيخ ما يفهم في مثل هذه الأمور، أو طبيب نفسي.. ولكنها للأسف لم تمهلني.. لقد استيقظت قبيل الفجر على وجهها المخيف، ونظراتها الملعونة التي تحدق بوجهي دون أن تطرف.. قفزت من فوق الفراش، ودقات قلبي تتقافز معي.. كيف دخلت إلى الغرفة أصلا؟ وبكل الغل والرعب الذي عايشته، ضربتها بالعصا وأنا أصرخ: «ابعدي عني أيتها الملعونة.. ابعدي عني».. بالطبع كان تفسير هذا عسيرًا على الجيران، الذين تجمعوا



على صوت صرخاتي وصراخ الطفلين، اللذين هالهما ما يحدث من أبيهما لأمهما.

قلت مؤمنا على كلامه:

– وبالطبع بعد ذلك جاؤوا بك إلى هنا، بتهمة محاولة القتل.

– نعم.. لقد انتهى كل شيء، وتم القبض عليّ، لكن هناك شيء آخر بث الرعب في عروقي.

– ماذا؟

قال في لهجة مرعبة:

– الجيران.. بعض الجيران كانت حدقات أعينهم متسعة عن آخرها.

سكت قليلا وهو يتلفت حوله، ثم أكمل همساً:

– مثل زوجتي تماما.

* * *



(٨)

حالة بارانويا متقدمة، أو غزو مرعب من نوع ما.. هذا ما جال في خاطري.. رجحت الأولى بسبب هيئة الرجل، وطريقته في الكلام، وإن ظلت هناك بضع نقاط غامضة، تحتاج إلى تفسير.. وكذلك شهادة الجيران والأولاد، التي ستكمل بعض النقاط الناقصة.. في المجمل القضية منتهية.. أو هذا ما ظننته وقتها.

في اليوم التالي مباشرة، سجلت إدارة شرطة النجدة مكالمة غامضة، تم تحويلها إلينا طلباً لرأينا.. بدأت المكالمة بصوت فتاة يبدو من صوتها أنها في السادسة عشرة تقريباً، تقول في رعب:

– ألو.. شرطة النجدة؟

صوت رجل:

– نعم.. هل تريدي الإبلاغ عن شيء؟

صوت الفتاة:

– والدي.. إنه.. إنه...

كانت هناك بعض الردود المستفزة، وغير المنطقية من إدارة النجدة نفسها، وكأن من يرد يشعر بالسأم دائمًا، ولا يرغب في بذل أي مجهود، حتى إنه أغلق الخط في وجه الفتاة مرتين، ظنًّا منه أنها مزحة! لذلك سأقوم باختصار المكالمة بطريقة لا تفسد الحدث نفسه.

الفتاة اسمها وفاء.. وعنوان سكنها كما أملته هاتفيًّا في شارع قصر النيل.. وسط البلد.

وفاء تقول في رعب:

– أنا خائفة من والدي.. إنه يقوم بعمل أشياء مخيفة لا أستطيع تفسيرها.. أعتقد أنه يريد قتلي.

صوت رجل يسألها:

– أين أنتِ الآن؟

– لقد أغلقت حجرتي من الداخل.

– وماذا يفعل والدكِ؟

– لا أستطيع أن أراه، لكنه قبل دخولي مباشرة كان يمشي على الحائط.

– ماذا؟

– شاهدته يمشي على الحائط بطريقة تخالف كل قوانين الطبيعة، قبل أن يتسلق السقف.. متى سترسلون المساعدة؟

صوت خبطات قوية على باب خشبي، مختلطة بصراخ الفتاة.

– وفاء.. ماذا يحدث الآن؟

– إنه يحاول كسر باب الحجرة.. متى ستأتون؟

– سيارة شرطة النجدة في طريقها إليك الآن.. حاولي الصمود.. ماذا كنتِ تقصدين بتسلقه السقف؟!

صوت وفاء وهي تبكي:

– إنه يتصرف كالممسوسين في الأفلام الأجنبية.. حتى إن حدقتَي عينيه كانتا متسعتين بطريقة مخيفة.

تنبهت كل حواسي عن هذه النقطة.. ترى هل هذا معقول؟! هل يكون سمير صادقًا؟ لا يبدو لي أنها مصادفة.. مستحيل أن تكون كذلك.

صوت خبطات أكثر قوة، وتهشم قطع خشبية.

وفاء تصرخ في هلع:

– أسرعوا باللّه عليكم.. إنه يحطم الباب.. لاااا.. لا لا لا.. ابتعد عني..

صوت صفير متقطع أعقبه انقطاع المكالمة.

ظللت صامتا وقد تركت المكالمة أثرًا مرعبًا داخلي، حتى تنبهت إلى سؤال النقيب عماد:

– ما رأيك يا سيدي؟

– أخبرني أولا، ماذا وجدت الشرطة عندما ذهبوا إلى منزل الفتاة؟

– لا شيء.. مجرد منزل خاوٍ ومهجور منذ عدة أعوام.

– ماذا؟ شيء غريب حقًّا! ربما ذهبوا إلى عنوان خاطئ.. أو...

– أو ماذا؟

– أو ربما تعمد أحدهم الذهاب إلى عنوان مخالف.

– ربما هي مزحة من نوع ثقيل؟

قلت بسرعة:

– لا يا عماد.. هناك شيء مخيف يحدث لا أعرف ما هو.. متهم أمس المدعو سمير قال شيئًا مماثلًا عن عينَي زوجته.

قال وهو يهز كتفيه:

– أنت تعلم ما تفعله الأساطير الحضرية هذه الأيام.. شخص يلفق حدثًا ما عن مخلوق مرعب، تجد العشرات يؤكدون رؤيته، وتتم فبركة المكالمات والفيديوهات التي تؤيد ذلك.. كما حدث مع الرجل العصوي (Slender Man).

سألته غير فاهم:

– رجل عصوي؟!

أجاب ضاحكا:

– أو الرجل النحيل.. رجل غامض طويل القامة، ونحيف الأطراف.. لا وجه له، ويرتدي دائمًا حُلة سوداء.. يطارد الأطفال ويقنعهم باللعب معه ثم يختطفهم.. مجرد كذبة من شخص ما تحولت إلى ظاهرة عالمية، ومشاهدات بالآلاف.. والكل بات يؤكد رؤيته.

سألته في اهتمام:

– وما الذي يؤكد أنها مجرد كذبة؟

– الرجل نفسه الذي أطلق الشائعة اعترف بهذا، وأكد أنه قام بتأليفها على أحد المنتديات الإلكترونية.

قلت في شك:

– وربما حدث العكس تمامًا.. ربما أراد الرجل بعض الشهرة، فقام بفبركة هذا الاعتراف، واستغل ظاهرة مخيفة تحدث فعلا.

قال بغير اقتناع:

– ربما.. لا يستطيع أحد أن يؤكد هذا.

– أو ينفيه.. الحقائق صارت مثلها مثل الأكاذيب المتقنة، لا يستطيع أحد أن يفرقهما عن بعضهما.

– نعم، هذا صحيح للأسف.

قالها مغادرًا المكان، وتركني مفكرًا في هذه الأحداث التي تدير العقل.. كل ما أحتاجه الآن هو رأي خبير.. لكن الخبير الوحيد الذي أعرفه غادر إلى غير رجعة..

للأسف الشديد.



* * *

أثناء عودتي ليلًا إلى منزلي، بعد يوم عمل مضني، حدث شيء ما.. كنت أقود سيارتي بهدوء في طرقات المدينة الغافية، مستمتعًا بصوت أم كلثوم الشجي، التي ملأ صداها فراغ السيارة؛ لكن صوت آخر طغى عليها بشكل مزعج.. أطفأت المذياع وأنا أنصت لما يحدث خارج سيارتي.. هذا صوت نباح لا شك فيه.. نباح ممطوط حزين كما يحدث مع الكلاب التي يتوفى صاحبها.. اقتربت بسيارتي أكثر لأشاهد العجب.. عشرات من كلاب الشوارع تقف أمام سور أحد النوادي، وتنبح في نغمات مختلفة.. بعضها ينبح بقوة، وأخرى تنبح بحزن، وكأن هناك ما يزعجها داخل الحائط.. ما الذي يحدث بالضبط؟

توقف بالسيارة على مقربة منها، أراقب سلوكها الغريب هذا.

ظاهرة مخيفة، تنذر بحدث مرعب لا أفهمه.

أخرجت مسدسي من النافذة، مطلقًا رصاصتين في الهواء؛ كي ينفض هذا المجلس الحيواني.. لكن شيئًا لم يحدث.. لم تفزع الكلاب أو تهرب من صوت الطلقات المدوية.. لقد ظلت تنتهج ذات السلوك دون أي تغيير، وكأنها أصيبت بالصمم، أو

أن ما تشاهده استولى على كل حواسها.. لم يكن بيدي شيء آخر أفعله.. لذلك غادرت دون أن أفهم.

* * *

في المنزل لاحظت زوجتي شرودي أثناء تناول العشاء؛ فسألتني بقلق:

– ماذا بك؟

داعبت قطع السلطة بالشوكة، وأنا أجيبها:

– لا شيء.. العمل كان مرهقا لا أكثر.

هزت رأسها متفهمة وقالت:

– اللّه معك.

صمتت قليلا ثم قالت، وهي تحمل طبقها وتنتقل إلى جواري:

– هناك شيء طلبت مني صديقتي أن آخذ رأيك فيه.. سمر.. أنت تعرفها.. جارتنا التي تسكن في الطابق الرابع.

قلت محاولا بث جو من المرح بعد معاناة اليوم:



– لا تقولي أنها تريد أن تتزوجني.

ابتسمت في شراسة وهي تقول:

– اطمئن.. إنها متزوجة.

– يا للخسارة.. ظننت أنها فرصتي التي أنتظرها.

– فرصتك هي أنا.. ولن تجد فرصة أفضل مني.

– من قال هذا؟ الفرص كثيرة، ولكنني لا أحسن استغلالها.

– دعنا من المزاح، وقل لي ماذا أخبرها؟

– أخبريها أنني موافق.

مسحت يدي في المنشفة، وقلت وأنا أنهض:

– هل حكت لكِ شيئًا؟

نهضت بدورها كي تنظف المائدة، وقالت:

– لا.. سمر كما تعلم طبيبة نفسية، وكل ما يحدث مع مرضاها سر من أسرار المهنة، ولا يجوز كشفه للغرباء.

– ولكنكِ صديقتها.

– لن أفيدها في شيء لو حكت لي.. هي ترغب في رأي ضابط شرطة محنك مثلك.

– لابد أن في الأمر جريمة.

– حقّا! ظننتها تريدك كي ترضع طفلها.

ضحكت رغما عني، وقلت:

– أكثر ما يعجبني فيكِ يا عزيزتي، هو خفة دمكِ.

شاركتني الضحك، ثم سألتني:

– هل أهاتفها كي تأتي الآن؟

أومأت برأسي موافقا:

– لا مانع طبعا.

سكتنا قليلًا، وقد انهمك كلانا في فعل شيء ما، ولم يقطع سكوتنا إلا صوت نباح الكلاب المزعج الآتي من خارج النافذة.

تساءلت زوجتي في تعجب:



– ما سبب نباح هذه الكلاب بتلك الطريقة؟

آه لو عرفت زوجتي ما يحدث منها في الخارج.. سيجافيها النوم حتماً لأيام عديدة.

* * *

تناولت سمر كوب الشاي بأصابع مرتجفة، ومن خلف الستار المؤدي إلى الردهة، لمحتُ ظل زوجتي تتنصت في حذر، فابتسمت رغما عني وأنا أقول:

– لقد علمت من زوجتي أنكِ تواجهين جريمة ما و...

قاطعتني بانفعال:

– لا.. لا.. ليس في الأمر جريمة.

سألتها متعجبا:

– ماذا إذن؟!

تلفتت حولها، وهي تقول بنبرات خائفة:

– أعتقد أن هناك حالة من المس الشيطاني تصيب الجميع.

* * *

(٩)

على الجانب الآخر كانت ميار تتقلب في فراشها، متمتمة بصوت هامس:

– أين أنت يا حسام؟

وداخل عقلها الغائب في عالم الأحلام، كان حسام واقفا في قلب الضباب، وهو يقول في لهفة:

– أنا هنا يا ميار.. أنا هنا.

– أين؟

– في مكان لا يستطيع أحد الوصول إليه.. أريد مساعدتكِ كي أستطيع العودة.

– كيف؟

– ابحثي في حجرتي عن الساعة.

– ساعة! أي ساعة؟

– الساعة يا ميار.. الساعة العاشرة.

– أنا لا أفهم.



– حدث ضخم يحدث الآن يهدد الجميع.. لا بد من عودتي بأي طريقة.

تلاشى تدريجيّا وهو يردد في قوة:

– لا تنسي.. الساعة العاشرة.. اطلبي مساعدة صلاح.

سألته غير فاهمة:

– صلاح مَنَ؟

اختفى تماما وهو يردد:

– الجرس.. لابد من الجر...

فتحت ميار عينيها، ونصف عقلها مازال غائبًا داخل الحلم.. نهضت وهي تشعر بالدوخة؛ لتتناول زجاجة الماء الموضوعة بجوارها فوق الكومودينو.. تجرعت جرعات كبيرة، وهي تتساءل في حيرة وألم عن سبب تلك الأحلام، التي تتكرر يوميّا بنفس الطريقة..

* * *

شعرت بالفزع من مجرد الفكرة؛ فسألتها بقلق:

– ما الذي جعلكِ تعتقدين هذا؟

قالت وهي تعيد كوب الشاي مكانه:

– في البداية جاءني مريض، ولندعوه بـ صاد.. حكى لي صاد هذا عن استيقاظه ليلًا على صوت غريب يصدر من قلب الكاسيت، وقد وضعته ابنته بجواره أثناء نومه لسبب غامض.. وعندما سألها أخبرته أنه مسلسل رعب إذاعي قامت بتسجيله، وتحاول تجربة جودة الصوت.. في اليوم التالي لاحظ اتساع حدقتيها مع عدم تأثرها بالضوء.

ارتجفت يدي بدورها، وقد بدأت أشعر بالرعب:

– اتساع حدقتي عينيها! هل أنتِ متأكدة أنه قال هذا؟

قالت مؤكدة:

– نعم.. نعم.. انتظر قليلًا حتى أنتهي وسوف تتأكد بنفسك.

قطع حديثنا صوت رنين الهاتف.. أجفلت لحظات ثم ناديت زوجتي كي ترد، حتى أنتهي من سماع صديقتها التي واصلت:



– كنت أقول... نعم، لقد لاحظ اتساع حدقتَي عينيها.. في الصباح وأثناء مغادرة المنزل متجهاً إلى عمله، وجدها تقف بلا حراك أمام حائط حجرتها، وقد انسدل شعرها فوق رأسها بطريقة مخيفة.. ناداها ولكنها لم ترد، وظلت هكذا تسند جبهتها على الجدار، وقد تجمدت كالتمثال.. ذهب إليها بحذر لا يعرف ماذا يفعل، وعندما هم بوضع كفه على ظهرها كي يجعلها تتنبه، صرخت صرخة هائلة اقتلعته من مكانه كالإعصار، ولم يشعر بشيء إلا بعدها بعدة ساعات، وهنا لم يجد مفرّاً من استشارتي.. لا أنكر أن حديثه يتشابه مع أمراض نفسية عديدة، وهذا ما ظننته في البداية.. حتى جاءت سين.

سألتها وقد احتبس الهواء في صدري من شدة القلق:

– لا تقولي أنها أخبرتكِ بذات الشيء.

هزت رأسها قائلة:

– أقسم باللّه أن هذا ما حدث.. لقد حكت لي عن تصرفات مريبة يقوم بها شقيقها.. وظنت كالعادة أن هذا بسبب المخدرات، وأصدقاء السوء.. لكن التصرفات الخارقة للطبيعة جعلتها تتأكد أن الأمر

أكبر من هذا.. اتساع عينيه.. تحرك المقعد من تلقاء نفسه.. تسلقه الجدار.

هنا جاء السؤال الحاسم، الذي تركته للنهاية.. سألتها والخوف ينمو داخلي:

– أخبريني يا دكتورة سمر.. كم حالة بالضبط مماثلة لما أخبركِ بها صاد وسين؟

قالت في سرعة:

– عشر.

قلت في ذهول:

– ماذا؟

كررت قولها مرة أخرى:

– عشر.. جاءني عشرة أشخاص حائرين في الأيام القليلة الماضية، وقصوا عليّ نفس التفاصيل بصيغ مختلفة.

فركت أصابعي من شدة التوتر، وقلت:

– أليس من المحتمل مثلا، أنهم اتفقوا على خداعك؟



– ولماذا يفعلون هذا؟!

– طلبا للشهرة.

– وكيف سيحصلون على هذه الشهرة، إذا كان ما يحكونه لي سر لا يجوز إفشاؤه.. لماذا لم يفعلوا هذا على شبكات التواصل الاجتماعي، أو في أحد اللقاءات التلفزيونية؟

قلت حائرا:

– المشكلة أن ما تقولينه مخيف لأقصى حد.. إنه أشبه بغزو من نوع خاص.

صمت قليلًا، وأنا أفكر في أحداث الأيام الماضية.. هل أخبرها بما واجهته؟ أم أحتفظ به لنفسي.. ولو أخبرتها هل سيفيدني هذا؟ إذا كانت هي نفسها قد استعانت بي لأنها لم تجد حلًّا.. أحتاج الآن إلى شخص ما يستطيع أن يساعدني.. شخص يفهم في مثل هذه الأمور.. شخص مثل حسام... لكن أين أجده؟

سألتني سمر قبل أن تنصرف:

– هل ستساعدني؟



أخبرتها كي أطمئنها أنني سأساعدها بالتأكيد، وسأحقق في الأمر، ولكنني لا أعرف بعد كيف سأفعل هذا؟

* * *

غادرت ميار الفيلا، وعبرت الحديقة المظلمة، التي يتعالى من داخلها صفير الحشرات الليلية.. من صغرها وهي تسمع هذا الصفير، ومع ذلك فهي لم ترَ تلك الحشرات الليلية قط، ولا تعرف هيئتها أو مكان اختبائها.. شيء غريب أن تقضي حياتها دون التفكير في هذا إلا الآن، ربما السبب رغبة دفينة في شغل تفكيرها، عن طلب حسام، الذي لا تعرف حتى الآن هل هو مجرد حلم، أم اتصال عقلي ما؟ ستعرف بعد قليل، عندما تفتش في حجرته الملاصقة لسور الحديقة الداخلي.. الحجرة التي وافق والداها على منحها له كي يسكنها، بعد تجربته المريرة مع الشقة المسكونة.

أخرجت المفاتيح من جيبها، وعلى ضوء المصباح الصغير الملتصق بهاتفها المحمول، أدخلته في ثقب الباب وأدارته في اتجاه عقارب الساعة.. صوت الاحتكاك النحاسي يخبرها أن الباب جاهز للدخول.. ترى ماذا كان يقصد بالساعة العاشرة؟

هذا ما دار بعقلها، ولم تجد له أية إجابة بعد.

أضاءت المصباح الصغير الذي يتوسط الحجرة، وراحت تنبش بعينيها أرجاء المكان.. كتب مكدسة داخل صناديق من الكرتون.. تمثال أو اثنان فوق رف خشبي.. خريطة بلغة مجهولة توضح أماكن غير معلومة.. وساعة حائط سوداء مخيفة تبدو أثرية.. لابد أنها هي.

هكذا قالت ميار وهي تتقدم نحوها.. تفحصتها بتحفز فوجدتها معطلة عن العمل، وعقاربها متوقفة على العاشرة إلا خمس دقائق.. أدركت أن هذا أسهل من اللازم.. ستدير العقارب إلى الساعة العاشرة تماماً، وعندها سيحدث شيء ما.. سيفتح باب سري، أو تضاء فجوة في الحائط.. كما يحدث في الأفلام.. حبست أنفاسها من فرط الانفعال، وأدارت عقرب الدقائق إلى الرقم ١٢..

* * *

لا أذكر متى خلدت إلى النوم، لكنني أعرف متى استيقظت.. الهدوء والظلام والنسمات الساكنة تخبرني أن الوقت قبيل الفجر، وعقارب الساعة الفسفورية التي تقترب من الثالثة تؤكد هذا، أما سبب استيقاظي فهو غامض حتى هذه اللحظة، لابد أن يعود لي الإدراك الكامل حتى أعرف ما يدور حولي، والذي لن يخرج بطبيعة الحال عن حالة ملحة للشرب، أو الذهاب إلى الحمام.. لكنني على ما يبدو



كنت مخطئًا؛ فالسبب مصدره سماعة الديجتال الجديدة، والمزودة بمنفذ بطاقة ذاكرة وراديو.. الصوت الذي يخرج منها خافت للغاية، لكن مع الهدوء المتشعب من حولي كان يصل إلى أذنيّ واضحا.

عبارات غامضة غير مفهومة أقرب إلى الطلاسم.. نفس ما حدث للرجل الذي حاول قتل زوجته، ومرضى جارتنا الدكتورة سمر.

لقد انتقل الرعب إلى داخل منزلي نفسه.

وإلى زوجتي!!

* * *

شعرت ميار بحركة خفيفة تشبه اهتزاز الهاتف المحمول، أعقبها خروج درج صغير من أسفل الساعة، لا يتعدى حجمه علبة ثقاب.. وعلى ضوء الهاتف نظرت ميار داخله.. لم يكن يحوي إلا خاتماً صغيراً له فص أسود، انتشرت على سطحه الطلاسم.

هل يجب عليها ارتداؤه؟



هذا ما داعب مخيلة منار.. الأمر واضح.. هذا خاتم، ولا يوجد له أي استعمال آخر.

تأملته لحظات مفكرة، ثم وضعته حول أصبعها البنصر، ووقفت تنتظر ما سيحدث.

لحظات ولم يحدث أي شيء، كل ما حولها ساكن صامت، إلا من حفيف بعض الأشجار التي تداعبها النسمات الليلية.. حتى صفير صراصير الحقل توقف لسبب مجهول.. تأملت الخاتم بدقة أكثر، وقد ازداد داخلها الشعور بالحيرة.. ماذا تفعل بعد ذلك؟!

لكن تساؤلها لم يستمر طويلًا؛ فما حدث جعلها تدرك أي قوة تواجهها.. لقد انشق الوجود ذاته كاشفًا عن كيان أقل ما يقال عنه أنه شيطاني.

* * *

زوجتي انضمت إلى زمرة الممسوسين.. لكن هذا مستحيل.. ولا يمكن أن يحدث لي.. المصيبة أنه لم يكن هناك أي وقت لحدوث شيء كهذا.. لقد تعشينا معًا، وذهبنا للنوم معًا.. كنا متلازمين كل لحظة كالتوأم السيامي.. هنا تذكرت شيئا.. رنين الهاتف الذي سمعته أثناء جلوسي مع سمر.. ترى هل هو المتسبب في ذلك؟



الأمر واضح لا لبس فيه.. هذه هي الطريقة إذن لغزو عقول الزوجات والعائلات.. مكالمة هاتفية من مكان مجهول.. أم أقول من عالم آخر؟! مكالمة تحمل داخلها خطر الإصابة بالمس.. يتم الاستحواذ على البعض، ويقومون بدورهم بمهمة التوسع وتجنيد آخرين.. جهاز تسجيل، أو أي آلة صوتية تبث الطلاسم إلى المتلقي.. بعضهم ينجح، والبعض الآخر لا يتأثر مثلي أو مثل الزوج المتهم لسبب مجهول.. لكنني بالطبع لن أرضى أن يحدث هذا لي ولزوجتي العزيزة.. نهضت من فراشي بحذر، وتوجهت ناحية باب الغرفة.. تنصت قليلًا لكنني لم أسمع شيئًا.. عدت ببطء إلى خزانة الملابس كي أخرج مسدسي.. لن أطلق النار على زوجتي بالتأكيد.. أحتاجه فقط للحماية من أي خطر خارجي.

غادرت حجرتي ببطء وحذر.. وعلى الضوء الشحيح المتسلل من النافذة، وجدتها تقف متخشبة كعروس مانيكان في إحدى الواجهات الزجاجية للعرض.. اقتربت منها متسللًا كالقط الذي يستعد للانقضاض.. لكنها شعرت بوجودي بطريقة ما، أو بسبب حاسة مجهولة انتقلت إليها بفعل الشيء الذي يتلبسها.. واستدارت تواجهني.. هنا لم أملك إلا الارتجاف بشدة.. فما رأيته لم يكن هينا عليَّ بأي حال من الأحوال.

* * *





(١٠)

تراجعت ميار إلى الخلف بهلع شديد، في محاولة منها للهرب من ذلك الشيء الشيطاني الذي ظهر بغتة في قلب الحجرة.. وتلمست مقبض الباب وهي تدير ظهرها له بحذر.. ما الذي جعلتني أفعله يا حسام؟ سحبت الباب ناحيتها برفق، وقلبها يقرع بين جنبات صدرها كالجرس.. ثم وبحركة مفاجئة قفزت إلى الخارج وأغلقت الباب بعنف، ليدوي بعدها صراخ شيطاني هشم زجاج الحجرة بقوة، كمن أصابته قنبلة شديدة التدمير.

استدارت تجاه الفيلا وهي تكاد تركض بأقصى ما تستطيع كي تواصل هربها.. لكنها توقفت فجأة وهي تراقب هذا الحشد الذي يقف خارج السور.. من هم يا ترى؟ وعلى ضوء القمر المكتمل في كبد السماء لمحت عيونهم المضيئة كالجمر، وهنا أدركت أنهم ليسوا من عالمنا.. إنهم مخلوقات شيطانية بالتأكيد.. بدأت الركض وهي تشعر بالرعب من كل شيء حولها، وكل أملها في هذه اللحظة أن تصل إلى الفيلا بأمان.. وعندما التفتت للخلف لتراقب تحركهم وجدتهم يتسلقون السور الخارجي، ويقفزون إلى أرضية الحديقة.. لقد صارت المطاردة صريحة.

واصلت العدو محاذرة أن تنزلق، وتسلقت الدرجات الصاعدة بسرعة البرق.. شعرت وقتها أن كل شيء يدور حولها بسرعة لاهثة، جعلت قلبها يكاد يتوقف من شدة الجهد المبذول.. ما الذي يحدث بالضبط؟ تود أن تفهم.. لكن عليها أن تفلت أولًا من تلك المطاردة المرعبة.. بأصابع مرتجفة أدارت المفتاح في باب الفيلا، وبسرعة تحسد عليها قذفت بجسدها إلى الداخل، وأغلقت الباب بإحكام، وهي تتساءل هل سيصمد أمام ذلك الحشد، أم سيقتحمونه وتكون نهايتها؟ كل شيء سيتضح بعد قليل.. المهم أن تطمئن على والديها الآن.

صعدت السلم الداخلي للفيلا في اتجاه الطابق الثاني، الذي يحتوي على حجرات النوم؛ لكنها توقفت في منتصفه مرتجفة، وتراجعت إلى الخلف وهي تكاد تبكي.. عندما رأت والديها يقفان أعلى السلم، يحدقان فيها بأعين مضيئة على الرغم من الظلام السائد.

***

لولا أنني أثق في حواسي، لظننت أن ما أشاهده كابوس يدور أثناء نومي.

كانت زوجتي العزيزة تقف متخشبة.. عيناها مضيئتان في قلب الظلام، وقد ارتسم على



سحنتها تعبير شيطاني مرعب.. ولم يكن هذا كل شيء، ففوق ذراعها استقر طفل رضيع، تكاد تتمزق حنجرته من شدة البكاء، وبذراعها الحرة رفعت سكينًا حادًا في طريقها لذبحه. في الظروف العادية كنت سأطلق النار على رأسها مباشرة، ولست أقصد زوجتي تحديدا، بل أقصد لو أن هناك متهمًا يهدد طفلًا رضيعًا بالذبح.

لكن الحال هنا مختلف تمامًا.. فهي أولًا: زوجتي.. ثانيًا: هي في حالة مس لا تعي معها ما حولها.. هناك من يسيطر على جسدها، وليس الوقت ولا الظروف تسمح بمحاولة شفائها؛ لذلك وبلا تردد أطلقت النار على نصل السكين، فقذفت به الطلقة بعيدا.

في اللحظة التالية كنت أهوي بمقبض المسدس على رأسها كي تفقد وعيها، وبصعوبة بالغة التقطت الرضيع من بين أصابعها، وتركتها تسقط أرضًا.. كنت أعلم أن المس سيعطيها قدرة خارقة لا قبل لي بها؛ لذلك احتضنت الرضيع وغادرت المنزل بأقصى سرعة.. قفزت درجات السلم في سرعة لم أعهدها من قبل.. الرعب أعطاني طاقة هائلة أساسها حب البقاء، ومحاولة البحث عن مخرج.

وصلت إلى سيارتي في أقل من دقيقتين منذ مغادرتي الشقة، وانطلقت بها في أقل من ربع



دقيقة، بعد أن أرحت الطفل على المقعد المجاور.. لكن ذلك الحشد المرعب من الجيران ظهر فجأة أمام سيارتي، وجعلني أعتصر دواسة الفرامل بقدمي.. توقف السيارة بعنف جعلني أكاد أرتطم بالمقود.. وعلى ضوء المصابيح الثلجية شاهدت أعينهم المضيئة، وسحنتهم المخيفة المنذرة بالموت.

لقد وقعت في فخ مطبق لا فكاك منه.

* * *

صرخت ميار برعب كاد معها قلبها أن ينخلع، وهي تشاهد والديها وقد تحولا إلى كائنين مرعبين.. عادت تهبط الدرجات التي ارتقتها، وهي تفكر في طريقة مثلى للخلاص.. وبينما هي تراقب حركة والديها اللذين راحا يهبطان وراءها، لمحت على زجاج باب الفيلا خيالات مريبة، لأشخاص يحاولون اقتحام المكان.. لقد وقعت بين المطرقة والسندان.. لكن لا.. هناك حجرة المكتب.

أسرعت الخطى إلى حجرة المكتب الواقعة في بداية الممر الأيمن، وبسرعة دلفت إلى الداخل، وأغلقت الباب خلفها بإحكام.. الغرفة غارقة في الظلام، ولا تستطيع معه تبين أي شيء.. تحسست الحائط في هستيريا حتى وجدت مفتاح الضوء،



فضغطت عليه بسرعة محمومة.. أغلقت عينيها بقوة لحظات، ثم بدأت تفتحهما ببطء حتى تتعود على شدة الضوء.. المكان هادئ وليس به إلا مكتب والدها، والمكتبة التي تحتل الحائط الأيمن.. هناك مرآة لصق الجدار، ونافذة مدعمة بالحديد.. صحيح أن هذا يمنع دخول تلك الأشياء إليها، لكنه سيمنعها كذلك عن الهرب.. لقد صارت حبيسة رغما عن إرادتها.

قفزت في فزع عندما تعالت تلك الخبطات على باب المكتب من الخارج، مع أصوات غامضة هي خليط من الزئير والصراخ.. هذا جعل الأحداث في مخيلتها أشبه بفيلم ليلة الموتى الأحياء.. لابد أن تجد وسيلة أخرى للهرب.. تقدمت بحذر إلى النافذة المدعمة بالحديد تتفحصها، علها تجد وسيلة ما لنزعها.. تحسست الأطراف بأصابعها لتجد عدة مسامير يمكن نزعها بشيء من الجهد بواسطة مفك.. لكنها سحبت كفها بسرعة عندما وجدت من يحاول إمساكها من الخارج.. وعلى ضوء القمر الشحيح شاهدت جمعًا من الممسوسين يحاول تسلق النافذة..

اللعنة.. لقد صارت حبيسة المكان.

تأملت خاتم حسام في ضيق وعدم فهم.. وفجأة أشرقت تلك الفكرة في عقلها.. كل الخواتم في



القصص الخيالية يجب مسحها جيداً حتى تعمل.. ربما يظهر من داخلها عفريت، أو خادم من الجن.. أو حسام نفسه.. ماذا ستخسر لو حاولت؟ رفعت كفها إلى مستوى بصرها، وبيدها الأخرى راحت تمسح فص الخاتم.. لكن ذلك الصوت المدوي جعلها تتوقف.

وأمام عينيها الذاهلتين سقط الحصن الآمن الذي كانت تحتمي به.. لقد سقط باب المكتب، وصار الطريق مفتوحاً أمام تلك المخلوقات.

* * *

تراجعت ميار في هلع لا حدود له، وقد أيقنت أن حياتها قد انتهت إلى الأبد، على يد هؤلاء المسوخ المستحوذ عليهم من قِبل قوى مجهولة.. الذين راحوا يتقدمون في بطء بأعين متسعة مضيئة، وهيئة متخشبة مفزعة.. لم يكن ثمة أمل، لذلك أغلقت عينيها في انتظار النهاية، التي أتت سريعاً على هيئة صرخة وحشية عاتية كادت تطيح بها إلى الخلف.. ثم هدأ كل شيء بغتة..

فتحت عينيها ببطء، لتجد ذلك المخلوق الذي ظهر لها في حجرة حسام، لكنه هذه المرة كان يوقف هجوم الممسوسين.. لقد كان يدافع عنها.. شعرت بالدهشة من ذلك الفزع الذي ظهر على ملامح



المهاجمين، وتراجعهم المذعور إلى الخلف.. بينما تقدم ذلك المخلوق للدفاع عنها.. وهنا فهمت حقيقة الموقف.. إنه أشبه بالحارس الخاص أرسله لها حسام.. لكن هذا لا يحل لغز حلمها ولا لغز الخاتم.. ولا ينهي حالة المس الجماعي هذه..

هناك شيء آخر لابد من عمله، حتى ينتهي كل شيء.

عاودت تحريك فص الخاتم على كم ملابسها، مثلما فكرت منذ قليل.. طبقًا لعقلية حسام، لا بد أن هذه الطريقة المثلى لمعرفة سره..

وقد كان..

لقد رأت وجه حسام يطل عليها من المرآة المعلقة فوق الحائط!

* * *

(١١)

ظللت أرمق سحنتهم المخيفة لحظات.. مفكرًا في دهسهم والمضي في طريقي على أي حال.. لكن فكرة أنهم ما زالوا بشرًا تلح على عقلي في شدة.. خاصة أن المس كما أعلم له علاج.. هذا عن شخص واحد.. لكن ماذا عن علاج مئات الممسوسين؟!

مهما يكن.. لن أغامر بقتل من يمكن شفاؤهم في يوم من الأيام.. لذلك تراجعت بالسيارة إلى الخلف كي أجد مخرجًا بديلًا.. وهنا ظهر حشد آخر يسد عليّ الطريق الخلفي.. على ما يبدو لا يوجد مفر.

توقفت بالسيارة حائرًا لا أعرف أين أذهب، عندما شاهدت زوجتي تغادر البناية وتتقدم ناحيتي، ثم أشارت للحشد إشارة لم أفهم معناها، إلا عندما أخذوا يلتقطون قطع الحجارة من الطريق، ويمطرونها على السيارة في عنف شديد. تهشم زجاج السيارة في شدة، وإن ظل متماسكًا بفعل نظام الأمان الذي يمنعه من التناثر.. هنا لم أجد مفرًّا من التحرك بالسيارة لتفادي هذا السيل المنهمر..

انحرفت بها جهة اليسار.. ثم جهة اليمين.. تراجعت للخلف.. وإلى الأمام.. الحشد يضيقون عليّ الطريق،

ويغلقون أي منفذ.. شعرت باليأس الشديد، ولم أملك إلا الدعاء.. وهنا حدث شيء بالغ الغرابة.. وكأنما اللّه استجاب لدعائي.. لقد بدأ الحشد في التراجع، ومن خلفهم تصاعد صوت غامض يتلو تعويذة ما.. وهنا لمحت سيارة من فئة (SUV) تتقدم ببطء ناحيتي، والحشد يتراجع أمامها في خوف بفعل الطلاسم التي تدوي في المكان.. ورأيت فتاة تجلس خلف عجلة القيادة وتتوقف بالسيارة في محاذاتي قائلة بلهجة عملية:

– هيَّا معي الآن.

* * *

عبرت السيارة الطريق الموحش في سرعة لا تلوي على شيء.. بينما سألتني ميار في اهتمام:

– هل هو ابنك؟

رمقت الطفل النائم في المقعد الخلفي، وقلت:

– لا.. كانوا سيذبحونه.

ظهر الامتعاض على وجهها.. لكنني لم أهتم، وسألتها بجدية:



– أين سنذهب الآن؟

– سنذهب إلى المزرعة.

– هكذا! دون أن تشرحي لي ماذا يحدث؟

التقطت أنفاسها وقالت:

– أنت تعرف كل شيء حتى ذهاب حسام إلى عالم الجن.. هناك حدثت معركة كبرى بينه وبين ملك الجن الأحمر، انتهت بقتل ذلك الأخير، وهنا حدث تمرد هائل بين عشيرة الجن الذين صاروا بدون ملك.. لا أحد يحاسبهم، أو يملي عليهم ما يفعلون.. صاروا أحرارًا لا شيء يوقفهم أو يحاسبهم إلا ضميرهم.. بعد ذلك بدؤوا في الدخول إلى عالمنا عبر ثقب تركه حسام دون قصد.. عندما عبر إليهم.. لا أعرف كيف.. لكن حسام حاول منذ ذلك الحين أن يتصل بي عقليًا كي يبلغني كيف نواجههم، ونوقف غزوهم ضد عالمنا.. ونغلق ذلك الثقب اللعين، ونتخلص من تلك اللعنة إلى الأبد.. وتم الاتصال فعليًا بواسطة خاتم كان يملكه، وعبر أثير المرايا.. أنقذني وقتها من هجوم ساحق على الفيلا، وأبلغني عنك وعن طريقة استعادته وإرجاعه إلى عالمنا، وتشغيل تلك التعويذة الصوتية لحمايتنا من أي هجوم آخر.



سكتت قليلا ثم أكملت:

– والآن نحن في طريقنا كي ننهي كل شيء.

* * *

بمهارة وقوة تحسد عليها، قطعت ميار الطريق الأسفلتي، وعبرت فوق الأرض الترابية متجهة إلى المزرعة.. لم توقفها وعورة الطريق، أو أية عوائق بفضل قوة السيارة، ومهارتها في القيادة.. حتى بوابة المزرعة اقتحمتها بدون تردد محطمة إياها. واصلت الاندفاع قليلًا، حتى توقفت دفعة واحدة أمام باب منزل المزرعة.

سألتها:

– سيارة مدهشة حقّا.. هل تحتوي على abs؟

نظرت لي في دهشة لا تعلم هل سؤالي حقيقي أم مزاح.. بصراحة لم أكن أمزح.. تفتنني دائماً السيارات التي بها نظام فرامل قوي، وثبات محكم على السرعات العالية.

تركت مسجل السيارة يعيد تشغيل التعويذة مرارا دون كلل، وقالت في سرعة:

– هيا بنا.

– والطفل؟

– هاته معك.. لن نتركه وحده بطبيعة الحال.

حملت الطفل بلطف، ولحقت بها عند باب منزل المزرعة، وأنا أقول:

– والآن ماذا؟

قالت بهدوء:

– أعطني كفك.

بسطت كفي نحوها قائلا:

– ها هو.

غرست نصل مدية صغيرة في راحة يدي فجأة؛ فأبعدت يدي للخلف بحركة غريزة وأنا أهتف بعنف:

– ماذا تفعلين؟

فردت كفي وبدأت تأخذ الدم بواسطة فرشاة صغيرة، كي ترسم عدة دوائر على الباب قائلة:

– هذه حماية للمنزل، حتى لا يوقفنا أحد أثناء تنفيذ مهمتنا.

سألتها وقد راح غضبي يزداد:

– وما تلك المهمة بالضبط؟ لا أقصد غلق الثقب وعودة حسام.. بل أقصد كيف سنفعلها؟

أشارت بأصبعها إلى السطح، وقالت:

– لن تستطيع رؤيته من هنا.

– ما هو؟

– الجرس.

– جرس!!

– إنه ذلك الشيء الذي سيساعدنا.. كي ننهي كل شيء.

هذه الفتاة تبالغ حقًا، وتحاول أن ترسم الغموض في كل ما تفعله دون مبرر.. تظن نفسها نانسي درو..

* * *



صعدنا على السطح بعد أن تركت الطفل كي ينعم ببعض النوم في إحدى الحجرات.. السطح بارد والسماء تنذر بالمطر.. بحثت معها عن الجرس الموعود فلم أجده.. لكنني وجدتها تشير بحماسة إلى أسطوانة من النحاس تتعدى المترين طولًا، تختفي خلف عشة خشبية صغيرة، ومعلقة من طرفيها بواسطة سلسلة من الفضة قائلة:

– ها هو ذا.

– لكنه ليس...

قاطعتني قائلة:

– هذا ما أخبرني به حسام.

لعنت حسام في سري وقلت:

– وماذا سنفعل الآن؟

أخرجت ورقة من طيات ملابسها، وقالت:

– سنضبطه في اتجاه ١٧ درجة إلى الشرق.

– وكيف سنعرف...

قاطعتني مرة أخري وهي تخرج هاتفها المحمول:

– سنضبطه بواسطة تطبيق البوصلة.

داعبت الشاشة بأصابعها ثواني، ثم أشارت في أحد الاتجاهات:

– هناك.

ذهبت إليه كي أحركه قائلا:

– هكذا؟

ولم أكمل الجملة.. لقد انفكت الأسطوانة من أحد طرفيها، وهوت على الأرض في دوي مزعج.. تراجعت بعيداً في حركة غريزية.. وما إن اطمأننت قليلًا حتى عاودت الاقتراب مجدداً، وأنا أقول:

– هيا.. ساعديني.

لكنها وضعت أصبعها أمام فمها قائلة:

– صه!

وراحت تصغي لصوت الرياح التي تعصف حولنا.

– ماذا؟

نظرت لي بقلق وهي تقول:

– لقد توقفت التعويذة عن الدوران.

– ربما الصوت لا يصل لنا بفعل الرياح.

– لا.. أحدهم هنا.

اقتربت من السطح لتنظر إلى سيارتها، ثم تراجعت في فزع قائلة:

– نحن محاصرون.

تقدمت كي أنظر بدوري، لأرى ما لم أتوقعه.. كان هناك حشد من الممسوسين يقفون بأسفل، ولابد أنهم من قاموا بتعطيل كاسيت السيارة عن العمل.. وأكثر ما أثار فزعي هو أعدادهم.

كانوا يقتربون من ألف شخص.. أو يزيد.. وإنهم قادرون على تمزيقنا إربًا.

* * *

صاحت ميار بقوة:

– لا بد أن ننتهي من تفعيل الجرس بأقصى سرعة.

تفعيل الجرس! هذا يذكرني بطلب اليوتيوبر لمشاهدين الفيديو.. هذه الفتاة تتخذ دور قائد

حربي بجدارة.. ولولا أننا في موقف ينذر بنهاية عالمنا، لكان لي رد فعل آخر.. لكن هذا ليس وقته.

حاولت رفع الطرف الذي سقط.. لكنه كان ثقيلًا حقًا.. ويزن أكثر من مائتي كيلوجرام.. تساءلت في سخط:

– كيف كان يرفعه حسام؟

لكنني لم أتلقَّ إجابة.. نظرت إلى الخلف لأجد ميار تنظر من طرف السطح إلى أسفل في قلق.. سألتها بصوت مرتفع:

– ماذا يحدث؟

– يحاولون اختراق تعويذة الحماية.

– كيف؟

لم تجب.. لكنها أشارت لي أن أنظر بنفسي.. تركت ما أفعله ونظرت إلى الأسفل.. وهنا شاهدت أعجب شيء يمكن أن أصادفه في حياتي كلها.. كان يقف أضخمهم جسداً.. ويضرب الباب برأسه.. لم تكن طريقة مجدية في رأيي، لولا أنني رأيت الدماء تتناثر من رأسه لتطمس جزءاً من الطلسم.. وهنا تراجع

إلى الخلف.. وتقدم شخص آخر يكرر ما فعله دون أدنى تغيير.

– اللعنة!

قلتها ساخطًا وأنا أراقب المشهد، وأكملت:

– لقد انتهينا.

صاحت ميار في حسم:

– لا.. ما زال أمامنا القليل من الوقت.

– كم؟ ثانيتان؟!

– لا تضع الوقت وهيا بنا.

تبعتها وأنا أشعر أن نهايتنا دانية.. لكن حماسها جعلني أحذو حذوها.. الثواني تفرق في الحروب، وفي العمليات الجراحية.. جلست في وضع السجود أسفل طرف الأسطوانة الساقط، ثم بدأت أقف في بطء، تاركًا الطرف يهبط على كتفي.. أو كتفي هو من تلقاه من أسفل.. لا يهم.. المهم أنني بدأت أستنفر كل قوتي كي أرفعه إلى أعلى.. الأسطوانة ثقيلة حقّا، لكن لا حل بديل.

نفرت عروق رقبتي، وشعرت بالدماء تحتشد في رأسي، والشعيرات الدموية تداعب بياض عينيّ.. لكن مع كل هذا المجهود لم أقترب إلا قليلًا من حلقة السلسلة.

صوت تهشم يدوّي في الأسفل، وصراخ ميار يصل إليّ:

– لقد اخترقوا باب المنزل!

أصوات مئات الأقدام تتدافع أسفلنا.. في طريقها إلى السلم المؤدي إلى السطح.. صرخت بدوري:

– ساعديني كي أصلها بالسلسلة.

ركضت نحوي، وصوت الخطوات يتصاعد في شدة.. أصابعها الصغيرة تحاول إمساك السلسلة وتقريبها مني.. في نفس وقت محاولتي لرفع الطرف الثقيل..

طرقات عنيفة على الباب، وميار تحاول مساعدتي بأقصى طاقتها.. فتاة مدهشة حقًّا.. الطرف يشتبك أخيرًا في نفس اللحظة التي تهشم فيها باب السطح، وبدأ فيضان من الممسوسين في الاقتحام.. هنا شل عقلي عن التفكير، ولم أعرف ماذا أفعل.. هل انتهى كل شيء؟



صورة زوجتي تداعب عقلي.. والعذاب الذي عاشه حسام.. ومحاولات ميار الباسلة في إنقاذ الجميع.. ماذا فعلت أنا؟ لا شيء.. هنا تفجرت الحماسة داخلي، فأخرجت المسدس من طيات ملابسي، وأنا أصرخ بميار:

– سأعطلهم قليلا حتى تفعّلين الجرس.

ثم اندفعت ناحيتهم ألكم هذا، وأطلق النار على قدم هذا.. كنت أحاول بقدر الإمكان عدم إصابة أحدهم في مقتل.. لكن أعدادهم أخذت في التزايد بسرعة كالجراد، وأخذت الضربات المتبادلة تصيبني في جسدي.. رمقت ميار بسرعة لأرى إلى أين وصلت.. كانت تضبط اتجاه الأسطوانة أو الجرس كما أسماه حسام.. لم يرهبها ما يحدث، أو يثنيها عن عزيمتها.

هنا دارت رأسي بشدة بسبب ضربة قاسية هوت عليَّ.. ضربة أخرى أسقطتني أرضًا، وشعرت معها أن عظام كتفي تهشمت.. الضربات والركلات تنهمر علي، والحشد يواصل تقدمه إلى ميار.. آخر شيء شاهدته قبل أن تحيل الأقدام بيني وبينها، محاولتها اليائسة في تحريك الجرس إلى الأمام.. لقد فشلنا في آخر لحظة..

عزائي أن لكل شخص طاقته.. وقد استنفدتها كلها بصدق وأمانة.. لم أضعف أو أتكاسل عن شيء.. وهذا يرضيني..

صرخات ميار تصل إليّ.. المسكينة ما زالت تقاوم..

لا.. لن أستسلم!

نهضت على الرغم من آلامي، وقد أتتني فكرة سريعة ستنهي كل شيء في لحظات، ولا بد من تنفيذها في الحال.. وقفت في صعوبة.. الحشد بعضهم يعبر بجواري، والبعض الآخر يهاجم ميار..

التقطت أنفاسي في قوة ثم بدأت الركض.. ركضت بأقصى ما أستطيع، ثم اعتليت ظهور من يقفون أمامي، كمن يصعد درجات سلم، وقفزت في الهواء كطائر محلق لحظات، قبل أن أسقط فوق الجرس بعنف – أرجو أن يتحمل هذا اللعين، ولا يسقط ثانية – ثم بدأت التأرجح إلى الأمام، كما كنا نفعل ونحن أطفال عند تعويم الأرجوحة..

أمام وخلف.. أمام وخلف.

الجرس يتأرجح بشدة، والرياح الباردة تندفع داخله، ليدوي ذلك الصوت الذي أنبأني أنني على الطريق الصحيح.. لقد بدأ أخيراً هذا الأحمق في العمل.



* * *

(١٢)

قفزت من فوق الجرس، بعد أن تركته يواصل تأرجحه بفعل القصور الذاتي، وهويت أمام ميار كي أذود عنها ضد هؤلاء الملاعين.. لكنني وجدتهم قد تخشبوا كالتماثيل.

الجرس يواصل تأرجحه، مطلقًا صوتًا عجيبًا أشبه بصياح الفيلة، مع طنين عاتٍ كطنين آلاف من خلايا النحل المذعور.. الأسطوانة تشع بلون أبيض مبهر، وترسم مزيجًا مذهلًا من ألوان الطيف.. أكاد أقسم أن هذا الشيء يمزق نسيج الوجود ذاته.

وضعت ذراعي فوق كتفَي ميار، وجذبتها كي أبعدها عن أي مصدر للخطر، وبذراعي الأخرى حاولت كتم الطنين الذي يكاد يمزق طبلتَي أذني.. أشارت نحو وجوه الحشد المتخشب، وقالت:

– انظر..

نظرت فشاهدت العجب.. الوجوه تتلوى بطريقة مرعبة للغاية، ومن أعمق أعماقها خرجت وجوه أخرى أكثر رعبًا، وكأن هناك شيئًا يسحبها من داخلهم.. حدث ذلك مع الجميع، وبدا وكأنهم يعودون إلى شخصياتهم الطبيعية.



هتفت في سعادة:

– لقد عالجنا كل شيء.

ثم تنبهت إلى شيء هام:

– ولكن أين حسام؟

أشارت إلى قلب الضوء الذي أخذ يشع كشمس صغيرة في قلب الليل البهيم:

– ها هو ذا.

أخيرا..

لقد عاد الوغد كي ينال جزاءه مني.. نظير كل هذا الرعب الذي عشته بسببه.

* * *

توقفت ميار بالسيارة أمام منزلي، وهي تقول:

– لقد عانيت الكثير.. وحان الوقت لبعض الراحة.

ترجلت من السيارة وقلت:

– لقد عانينا الأمرين جميعا.



ناولني حسام الطفل الصغير، وهو يقول بإرهاق:

- لا تنسَ ابنك.

التقطته باسما وأنا أقول:

- إنه ليس ابني.. إنه طفل كانت...

قاطعتني ميار:

- كانت ستذبحه زوجتك.

هنا جاء إلى عقلي السؤال الحائر:

- حسام.. لماذا في هذه القضية جرت عدة محاولات لذبح أطفال رضع؟ ما الفائدة التي ستعود عليهم؟!

أجابني باهتمام:

- التضحية جزء لا يتجزأ من السحر والطقوس الشيطانية.. والهدف الأكيد الذي يحضرني الآن هو محاولة البعض إرضاء أحد ملوك الجن؛ كي يقبلهم في عشيرته.

- وماذا عن الممسوسين؟ هل هم في أمان الآن؟



– نعم يا صديقي.. لقد انتهى كل شيء إلى الأبد.. ينقص فقط أن أقص عليك غداً ما واجهته هناك.. وصدقني لن تستطيع أبدا استيعاب ما ستسمعه.

أومأت برأسي متفهما، واتجهت في طريقي إلى مدخل العمارة قائلًا:

– إلى الغد إذن.

* * *

في الصباح.. وعلى الرغم من الألم والكدمات التي تملأ جسدي، لكني رغم ذلك استيقظت مفعما بالأمل والسعادة.. لكن كل شيء انتهى فجأة مع وجه زوجتي الغاضبة، التي قالت:

– هل تزوجت عليَّ؟

اعتدلت في فراشي مندهشا:

– ما الذي جعلكِ تقولين هذا؟

قالت في حدة:

– من أين جئت بهذا الطفل إذن؟ أليس من زوجتك الأخرى؟

اللعنة.. لقد شفت من المس الذي أصابها، ونسيت كل أحداث أمس، ولو حاولت إقناعها من الآن وحتى مغيب الشمس، أنها من أتت بهذا الطفل كي تذبحه لن تصدقني.

اللعنة عليك يا حسام، وعلى المأزق الذي وضعتني فيه.

«تمت بحمد اللّه»



شكر خاص

إلى صاحب ومدير الدار الجميل الذي أرهقته كثيراً «هيثم حسن»..

وإلى القراء الذين انتظروا نشر روايتي في صبر.. مع وعد بعدم التأخر ثانية.

صدر للكاتب

– ظلال الخوف. (مجموعة قصصية)

– المزييرة. (رواية)



